أحمد بن هطال التلمساني

رحلة محمد الكبير

"باي الغرب الجزائري"

إلى الجنوب الصحراوي الجزائري

تحقيق وتقديم

محمد بن عبد الكريم

الناشر

عالم الكتب

القاهرة

أحمد بن هطال التلمساني

رحلة محمد الكبير

"باي الغرب الجزائري"

إلى الجنوب الصحراوي الجزائري

تحقيق وتقديم

محمد بن عبد الكريم

الناشر

عالم الكتب

القاهرة

أحمد بن هطال التلمساني

رحلة محمد الكبير

"باي الغرب الجزائري"

إلى الجنوب الصحراوي الجزائري

تحقيق وتقديم

محمد بن عبد الكريم

الناشر
عالم الكتب

الطبعة الاولى يوليو ١٩٦٩
الناشر : عالم الكتب ٣٨ شارع عبد الخالق ثروت بالقاهرة: ت ٥١٤٠١
المطبعة : مخيمر ٢٩ شارع الجيش بالقاهرة: ت ٩٠١١٩٢



بسم الله الرحمن الرحيم. صلى الله على سيدنا [illegible]

الحمد لله فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا

ومخترع الازواج ومصير الاشباح لها [illegible]

وفضل الانسان بالنطق [illegible] الى كل [illegible]

[illegible]

مكارم الاخلاق والشيم فاشتغلت [illegible]

[illegible] كل فن. وصنفت فيه [illegible] كل

[illegible]

مسائل والدواوين [illegible]

[illegible]

الصفحة الاولى من مخطوط المكتبة الوطنية رقم : ١٦٤٢

واحوجهم الى توفيقه ونسعيده احمد بن احمد بن محمد
بفتح الميم بن محمد بن احمد امن هكال كاليل من الله تعالى
ان يجبر صدع قلوبنا ويغفر جميع ذنوبنا وان يجعل الس
لسنتها لانا لمعاذنا اله ولى ذالك والقادر عليه وصلى
الله على سيدنا محمد وءاله عدد ما ذكره الذاكرون وا
غفل عن ذكره الغافلون وءاخر دعوانا ان الحمد لله رب
العالمين تم تقييد هذه الاوراق عشية يوم
الخميس الثاني والعشرين من شهر الله ذي القعدة
سنة اثنين بعد الماتين والالف على يد عبيد
ربه واحوجهم اليه المعترف بذنبه وتقصيره محمد بن
البشير بن محمد اقراى التلمساني دارا ومنشا غفر
الله له ولوالديه وللاشياخه ولجميع المسلمين والمسلمات
والمومنين والمومنات الاحياء منهم
والاموات ولا حول ولا قوة الا بالله
العلي العظيم وءاخر
دعوانا ان الحمد لله
رب العالمين

سنة ١٢٠٢

٢٢ ذي القعدة ١٢٠٢ يوم

2 /

الصفحة الأخيرة من مخطوط المكتبة الوطنية رقم : ١٦٤٤

وءاله وصحبه
بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله وسلم على سيدنا محمد

قال الشيخ الفقيه النحرير النبيه لسان الدولة
وفارس الجولة أبو العباس السيد احمد بن محمد بن علي
ابن احمد بن هلال التلمساني كثير العلم وصحيح
الاقوال رضي الله عنه
الحمد لله فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا :.
ومخترع الارواح ومصور الاشباح تبصرة وفضلا :.
ومفضل الانسان بالنطق المبلغ لكل منى :.
والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد افضل
من سلف ومن ظعنا :. وعلى ءاله وأصحابه ما حرك
ريح الصبا غصنا :. اما بعد فان علم اللسان
من اجل العلوم قدرا :. واكملها محاسنا وفخرا
وهو احق ما يطلق عليه علم العربية :. كان
اصل وافضل ما تنعقد فيه الخناصر بالعصبية
وتصرف اليه الهمم الزكية :. اذ به عرفت قدم ما
الامم :. وبه حفظت مكارم اخلاقهم والشيم :.
فاشتغلت به علماء كل قطر :. وصنفت فيه ادباء
كل عصر :. حتى ملئت منه الخزائن وكثرت
فيه الرسائل والدواوين :. فبعضهم خص بطرق
كتب فيه :. وءاخر اغترف بفضل تجديد :. وبعضهم
اكثر في المثل :. وشرب شرب من تعب وعلل في

الصفحة الأولى من مخطوط خاص بخزانتنا

تصدير

تحقيق مخطوط قديم عمل فني وهادف في نفس الوقت : فهو عمل فني لأنه يقوم على قواعد أساسية ويتطلب مهارة وإخلاصا وتجردا . وقليل من الناس في كل أمة وكل جيل يستطيعون القيام بهذه المهمة الشاقة الدقيقة . أما كونه عملا هادفا فلأن بعث المخطوط يخدم فكرة ، وبالتالي مصلحة وطنية وإنسانية . ولعل هذه من الحالات النادرة التي يجمع فيها المرء بين إخلاصه لفنه وإخلاصه لهدفه الإنساني . وإن ظاهرة العصر الذي نعيشه ، ظاهرة التحرر من الاستعمار ، تبرر الجمع بين هذين الإخلاصين .

الذين عرفوا الاستاذ محمد بن عبد الكريم ، محقق مخطوطة « رحلة محمد الكبير » يدركون ما أعني . فهو يبدي كثيرا من الاهتمام بالمخطوطات ، ولا سيا تلك التي تتناول حياة الجزائر عبر القرون الأربعة الماضية . وقد أطلعني على عدد من الأعمال التي قام بتحقيقها كما أطلعني على عدد من المشاريع التي يعتزم بعث الحياة فيها . وقد وجدت من خلال ذلك كله إنسانا دؤوبا مخلصا لمهنته الثقافية .

وإن نظرة سريعة إلى المؤلف وموضوعه تؤكد ذلك ، فابن هطال شخصية هامة في تاريخ الجزائر ولكنها مغمورة . فهو كمستشار ، وكاتب ودبلوماسي ومحارب قد عاش فترة خصبة من تطور هذه البلاد جديرة بالتسجيل والبحث . أليس ابن هطال نفسه هو الذي يعرف التاريخ بأنه « من أجل العلوم قدرا وأكثرها محاسن وفخرا . . . إذ به عرفت قدماء الأمم . . . » ؟ وقد سجل في كتابه رحلة محمد الكبير ، باي وهران إلى الجنوب « مقيدا » كما يقول ، « بالسوانح مراحله ومبينا منازله ومناهله » وإذا كانت شخصية ابن هطال

هامة ثقافيا فإن موضوعه هام من عدة جوانب . فإن الرحلة تتضمن أخبارا جغرافية واجتماعية وسياسية وعسكرية وأدبية لا يستغنى عنها أى دارس للجزائر خلال القرنين الماضيين. و بالإضافة إلى ذلك فإن محمداً الكبير ، الذى كان سببا فى تأليف الكتاب كان شخصية جديرة بتسليط الأضواء ، لأنه تقلب فى مناصب مختلفة وشهد تطورات كثيرة وساهم بقسط وافر فى خلق تلك المناصب وتوجيه تلك التطورات . فقد شغل منصب باى ، واشترك فى الحرب ضد الأسبان ، وقاد بنفسه حملة ضد الصحراء لإخضاع أهلها إلى سلطة الداى ، كما عرف عنه أنه قدّ شجع العلماء والأدباء والطلبة وأقام المدارس والعمارات .

ولعلنا ندرك ، من ذلك كله ، أهمية هذا الكتاب وقيمة العمل الذى قام به الأستاذ محمد بن عبد الكريم . وإننا نأمل أن يوفق فى أداء رسالته لنفض الغبار عن الآثار التى ظن البعض أنها قد دفنت ، بينما هى فى الواقع ما تزال حية غنية لا تحتاج إلا إلى يد مخلصة وقلم شريف وقلب ملىء بحب الإنسان .

الدكتور أ . سعد الله

٩ جوان ١٩٦٨

تقديم

هذه سابعة سبع مخطوطات[1] ، قد قمنا بتحقيقها ، وبذلنا جهداً كبيراً في إخراجها من زوايا الإهمال ودهاليز النسيان ، حتى يستفيد منها الجمهور ، ويطلع على ماضي أجداده وبلاده ، متوخين بذلك إفادة الطالب من محتوى المطلوب ..

ولكل من تلك المخطوطات موضوع خاص، ووجهة نظر، من حيث معالجة البحث ، وطريقة التأليف ، وأسلوب التعبير .

(ا) و موضوع هذا المخطوط ، مرحلة معينة من مراحل التاريخ العياني ، وفترة محدودة من فترات الزمن ، فقد عاشها المؤلف ليقيد حوادثها ، ويحبر ما هو أجدر بالتحبير ، فيطلع عليه من يأتي بعده من أبناء البشر . وذلك كله تلبية لباي وهران محمد الكبير ، ونزولا عند رغبته ، وتقربا بهذا التأليف إليه .

ولم يأل المؤلف جهداً في تحديد الأيام وضبط الساعات، ولم يفته ذكر أماكن تلك الحوادث .. بأسمائها المعروفة بين أهلها : « أما بعد : فإن التاريخ من أجل العلوم قدراً وأكملها محاسن وفخرا ، إذ به عرفت قدماء الأمم ، وبه حفظت مكارم أخلاقهم والشيم ..أردت أن أذكر منه نبذة ، أخدم بها مقام المبغضين ، ومدوخ المارقين ، مقتصراً على ذكر خروجه إلى جهة القبلة عام تسعة وتسعين ومائة وألف ، مقدراً بالسوائع مراحله ، ومبيناً منازله ومناهله » .

---

(1) وهي : ١ ـ أتحاف المنصفين والأدباء ، لحمدان خوجة . ٢ ـ وشاح الكتائب لقدور بن رويلة . ٣ ـ التحفة المرضية ، لابن ميمون الجزائري . ٤ ـ رحلة أحمد باي . ٥ ـ رحلة محمد الكبير باي وهران . ٦ ـ بهجة الناظر ، لعبد القادر المشرفي . ٧ ـ القول الأوسط فيما حل بالمغرب الأوسط ، لأحمد الشقراني .

(ب) وطريقة التأليف فى هذا الكتاب تقليدية بحتة ، فهى تعتمد على سرد الوقائع وذكر الحوادث وكفى . فلا تحليل ، ولاتعليل ، ولاسبب ، ولامسبب .

ولعل ذلك راجع إلى شخصية المؤلف من حيث ثقافته المحدودة ، وعقيدته الصوفية التى توحى إليه بأن كل ما كان أو سيكون ، فهو من الله جاء وإليه يعود .

(حـ) أما أسلوب التعبير فى هذا التأليف ، فقد جاء صورة مطابقة لعصر المؤلف ، معبرة لنا عن مدى ثقافته التى كانت فقهية أكثر منها أدبية .

ويبدو لنا ذلك جليا فى تطريز فقراته بآى الذكر الحكيم ، مثل قوله : « الحمد لله فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا »[1] ، كما تتضح لنا عقيدته التسليمية فى جمله الاعتراضية ، مثل قوله : « فإذا نظر العاقل هذا الجبل ، ظهر له مايدل على قدرة الله تعالى ، التى لايعجزها ممكن — فسبحان مكون الأشياء بقدرته ، ومظهر العجائب بحكمته »[2] . ومؤلفنا يكثر من الأسجاع الركيكة ويتكلف فى الإتيان بها ، ولو أدى به هذا التكلف إلى التضحية بالمعنى المراد ، كما نجده — أيضاً — يسوق ألفاظاً عامية المبنى ، أقليمية النزعة . ولم يرتب الكتاب أبواباً وفصولا حسبما جرت به عادات المصنفين القدامى . ولعل ذلك راجع إلى ضيق الوقت ، وفقدان المهلة ، لأنه قد حبره أثناء سفر لا يسمح فيه الترتيب والتبويب .. « لأنى قيدت هذه الأوراق فى أثناء سفر ، ولم تصحبنى كتب .. أستعين بها »[3] .

---

(١) مقدمة الكتاب ، ص : ٢ .
(٢) ص :
(٣) ص :

ثم لم ينظر فيه فيما بعد ، لينقح جمله ، ويصسل عباراته ، ويقرب معانيه .

ومهما يكن الأمر ، فإن هذه الرسالة ذات أهمية كبرى من ناحية الحقائق التاريخية ، لا سيما منها الأقليمية التي قلما نجدها في غير هذه الرسالة .

وقد أحببنا أن تقدم هذا التأليف — وبالأحرى هذه المذكرة — إلى جمهور المثقفين لا سيما منهم المؤرخين الذين لا يودون أن يدعوا كبيرة ولا صغيرة تفوتهم دون أن يقلبوها على جميع جوانبها ، حتى تتكشف لهم حقائقها على ما هي عليه ، فيمعنوا النظر في معانيها ومبانيها وأسبابها ونتائجها .

التعريف بصاحب الرسالة

نسبه : هو أبو العباس الحاج أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن هطال التلمساني .

وظيفته : كان كاتباً ومستشاراً لمحمد الكبير باي الإيالة الوهرانية ، ومبعوثاً له في المهمات الخارجية . فقد حدثنا أحمد بن علي بن سحنون في كتابه « الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني » أن محمداً الكبير — عندما كان يستعد لفتح وهران — وجه كاتبه أحمد بن هطال مع قاضي المحلة ، مصحوبين بهدايا إلى سلطان المغرب الأقصى ، ليسمح لهما بشراء ما يحتاج إليه الباي من أسلحة حربية .

ومن هناك ، توجه أحمد بن هطال إلى جبل طارق ، حيث وجد — في انتظاره — قنطارين ونصف قنطار من البارود قد اشتراها الباي من الإنجليز ، فعبأها وعاد بها إلى بلاده .

وبعد وفاة الباي محمد الكبير ، ظل ابنه عثمان باي يشغل نفس المنصب

الذى كان مشغولا به أبان حياة أبيه ، ثم لما توفى الباى المذكور ، أصبح ابن هطال كاتباً للباى مصطفى بن عبد الله المجنى رابع بايات الإيالة الوهرانية .

وفاته : استشهد ابن هطال فى معركة وقعت بين الأتراك وابن الشريف الدرقاوى وأنصاره وذلك فى أوائل ربيع الأول سنة (١٢١٩ هـ) .

وكان دوران رحى هذه المعركة المشئومة فى مكان يقال له « فرطاسة » يقع بين « مينا » و « واد العبد » ، وقد انتصر — فى هذه المعركة — ابن الشريف الدرقاوى وأنصاره انتصاراً عظيما ، فقتل عدد كبير من جنود الباى مصطفى . ومن بين هؤلاء القتلى ، كاتباه الحاج أحمد بن هطال وأبو عبد الله محمد الغزلاوى .

وفى نفس المعركة ، يقول حسن خوجة التركى — فى تأليفه « درالأعيان» :

« فرطاسة » يومها ترى الجنود به	ما بين قتـلى وأسرى غير ناجينا
فالباى جاء بجيش لا تقاد لـه	به يريد لقـا العـدو باغينـا
فلم يحقق لـه سعى ولا أمـل	بل جاء جنده صفر الكف با كينا
فاليوم لابن الشريف عز فيه على	باى الأعاجم لولا الدين لا دينا[1]

هذا ما أمكننا أن نأتى به من حياة ابن هطال ، بعد أن بذلنا جهداً كبيراً فى الاستقصاء عن أخباره فى مظان المصادر التى بين أيدينا ، ولعل الله ينسأ فى أجلنا ، ويتيح لنا الفرصة حتى نستكشف فى المستقبل ما غاب عن أعيننا فى الوقت الحاضر ، و « لـكل أجل كتاب »[2] .

---

(١) هذه الأبيات على وزن البحر البسيط ، مخبونة العروض ، مقطوعة الضرب .
(٢) لـكل أجل كتاب : سورة « الرعد » ، الآية : ٣٨

الباى محمد الكبير

التعريف به

اسمه : محمد بن عثمان الكردى .

كنيته : ابو عثمان ، ابو على ، أبو محمد ، ابو أحمد ، أبو الفتوحات ، أبو النصر ، أبو المواهب ، أبو الربيع ، أبو الفتح .

لقبه : الكبير[1] ، الأكحل [2] ، المجاهد المنصور .

أمه : جارية ، اسمها زائدة ، أهداها لأبيه مولاى اسماعيل سلطان المغرب الأقصى ، لمودة كانت بينهما . وأما أخوه محمد الرقيق (بو كابوس) فأمه حرة ، اسمها خديجة وأبوها من أشراف (المدية) يقال له : محمد بن عيسى المداني .

أبوه : أبو اسحاق الحاج عثمان بن ابراهيم الكردى ، كان خليفة على مليانة ، ثم ارتقى فأصبح بايا على تيطرى وأحوازها . وكان باى تيطرى محترما لدى الأتراك ، ومعتبرا عند باشواتهم ومفضلا على سائر البايات . وذلك لأن تيطرى أول ناحية خضعت للأتراك بعد مدينة الجزائر .

وتوفى عثمان بمدينة « معسكر » ودفن بها سنة (١١٧٠ هـ) بعد ما مكث فى الحكم تسعة أعوام [3] .

دور محمد الكبير فى الحكم

كان أبوه عثمان الكردى - مرتبطا بعرى الصداقة مع أبى إسحاق ابراهيم

---

(١) لقبه بالكبير إحسن اكراما له عندما فتح مدينة وهران .

(٢) كان يلقب بالأكحل منذ صغره ، وذلك لسمرته .

(٣) ويقول فورنوس . إنه قتل على يد أولاد نايل فى غزوة قام بها ضدهم عندما خرجوا من طاعة الاتراك أنظر (المجلة الأفريقية) لسنة ١٨٥٧ ، ص ٤٠٠ .

المليانى ، وكان هذا الأخير قائدا على « مليانة » ، ولما توفى الباى عثمان تكفل ابراهيم بعائلته واعتنى بولديه : محمد الكبير ، ومحمد الرقيق (بوكابوس) .

ولما توسم ابراهيم فى محمد الكبير نشاطا متزايدا وشجاعة صادقة وذكاء حادا ، أحب أن يوطد العلاقات بينه وبينهما ، فأصهر إليه ، وزوجه بابنته ، ولما ارتقى إبراهيم وبن عن الإيالة الغربية [1] أخذ معه صهره محمدا الكبير وعينه قائدا على « قليته » سنة (١١٧٨ هـ) ، وكانت مرتبة هذا القائد لها الأولوية فى الإيالة الغربية ، كما أن مرتبة قائد « مليانة » لها الأولوية — أيضا — فى الإيالة الجزائرية ، ولما وجد ابراهيم باى محمدا الكبير قد قام بواجبه أحسن القيام ، وأظهر براعته فى الحكم ، من إصابة التفكير ، وحسن التسيير : عينه خليفة له سنة (١١٨٢ هـ) وبعد مدة قليلة أشركه فى جميع حكومته ، ومنحه إدارة جميع الناحية الشرقية من الايالة الغربية .

وفى سنة (١١٨٩ هـ) تحرك الأسبان لغزو الجزائر بأسطول عظيم تحت قيادة « الارلادى أوريلى » فشارك محمد الكبير فى الدفاع عن الجزائر بجيشه الباسل ، وأبدى — أبان المعركة — شجاعة عديمة النظير ، وأذاق الجيوش الأسبانية مرارة الحمام ، فشكره الداى (محمد عثمان باشا) شكرا جزيلا ، وأثنى عليه الناس أجمعون .

وفى أوائل هذه السنة ؛ توفى ابراهيم باى [2] فطلبت الرعية من الداى أن

---

(١) كان مقر الباى للايالة الغربية — إبان احتلال الأسبان لمدينة وهران — ينتقل من مستغانم ، إلى مازونة ، إلى قلعة بنى راشد ، ثم معسكر ، ولما فتحت وهران المرة الأولى وغادرها الأسبان ، انتقل إليها مقر الباى مصطفى أبى الشلاغم ، ولما استرجعها الأسبان ، نقل مقره إلى مدينة مستغانم ، ثم فتحها الباى محمد الكبير ، ونقل إليها مقر الأيالة نهائيا .

(٢) وقع اختلاف كبير فى تاريخ تولية الحاج خليل بين المؤرخين ، وقد اعتمدنا على (الثغر الجمانى) لأحمد بن سحنون .

يعين مكانه محمدا الكبير بايا على الإيالة الغربية . وكاد الداى ينفذ رغبة الرعية ، لولا تعرض أحد الأغنياء — اسمه الحاج خليل — لابتياع هذا المنصب من الداى بثمن باهظ وضع فى خزانة مال الدولة حسبما جرت به العادة آنذاك ، وهكذا بقى محمد الكبير يشغل منصب خليفة ، مترقبا فرصة متاحة فيرتقى إلى مرتبة باى .

وفى سنة (١١٩٢ هـ)[1] اجتمعت الطائفة الدرقاوية من جديد بموضع يقال له «عين الحوت» قرب «تيموشنت» وقررت الخروج عن دولة الأتراك ، فنهض إليهم الحاج خليل باى الإيالة الغربية ، وفى أثناء سيره إليهم حدثت عاصفة شديدة شتت شمل عسكره ، وفجأة توفى الباى دون أن يعرف سبب لوفاته ، فاستجاب الداى لرغبة الرعية ، وعين محمدا الكبير بايا على الإيالة الغربية ، فقضى على الثورة الدرقاوية وغيرها .

وبمجرد جلوسه على كرسى الحكم وتعيينه بايا ، شرع فى إصلاح شؤون الرعية ، والسهر على مصالح العباد وتنظيم البلاد ، فراح ينشر الأمن ويؤلف بين قلوب الناس ، وبادر بإخضاع القبائل المتمردة على الحكم التركى ، مثل قبيلة « أولاد على بن طلحة » وقبيلة « الحشم » وقبائل « فليتة » و « حميان » و « عمور » وجميع قبائل « بنى راشد » . وبعض القبائل كانت مقيمة على الحدود المغربية تحترف اللصوصية وقطع الطريق على المسافرين ، فانتصر على الجميع وأخضعهم للحكم التركى وملأ خزينته بما أدوا له من الضرائب ، كما أدخل بعضهم فى « المخزن[2] » فأصبحوا له منقادين ، ولحكومته مخلصين . وأما غزواته

---

(١) اعتمدنا فى هذا التاريخ على كتاب (سعد السعود) للمزارى ، مخطوط بخزانتنا .

(٢) هم العرب الجزائريون الموالون للدولة التركية ، والمؤيدون لسياستها .

التى قام بها داخل البلاد ، هى غزوة الجنوب الصحراوى الجزائرى التى جهز لها جيشاً عرمرما ، وزحف به من « معسكر » ماراً بـ « جبل عمر » و « البيضاء » و « أفلو » و « الطويلة » إلى أن وصل مدينة « الأغواط » حيث دخلها بقوة هائلة ، ونشاط متزايد ، فانقاد له جميع القبائل التى بضواحيها بما فيها « مزاب » ، واعترفوا كلهم بدولة الأتراك فى القطر الجزائرى ، ورضوا أن يؤدوا لها الضرائب السنوية عن طيب نفس .

وقد وقعت هذه الغزوة (سنة ١١٩٩ هـ) وهى التى حققناها ، ونحن بصدد التقديم لها

ثم أخذ الباى يتهيأ لفتح مدينة وهران واسترجاعها من الإسبانيين بعد ما أخذوها قهراً من الزيانيين .

مدة مكث الإسبان بوهران

فى مستهل ربيع الثانى سنة (٩١١ هـ) سقط برج المرسى الكبير فى أيدى الإسبانيين ، وفى آخر المحرم من سنة (٩١٤ هـ) تم الاستيلاء على مدينة وهران بأكلها ، وفى صبيحة يوم الجمعة من السادس والعشرين من شهر شوال سنة (١١١٩ هـ) فتحها مصطفى أبو الشلاغم باى الأيالة الغربية على عهد محمد « بكداش » باشا الجزائر بعد ما مكث بها الإسبانيون مائتى عام وخمس سنوات . وقد أشار الحافظ أبو عبد الله محمد التنيرى فى رجزه إلى تاريخ دخول الإسبان وخروجهم من وهران ومدة مكثهم بها ، إذ يقول :

يا سائلا عما بوهران ظهر من أخذها وفتحها كما انتشر
أخذها الكفار بالثبات فيما رويناه عن الثقات
سنة أربع وعشرة مضت من بعد تسعمائة قد كملت

فمائتان مع خمسة سنين   عدة مكثها بأيدى الكافرين
ثم بدا العزم من الإله   وجاءنا الفتح ونصر الله
فتحت سنه تسعة عشر   ومائة بعد ألف تعتبر
فى سادس العشرين من شوال   صبيحة العشرين خذ مقالى
عن يد من قد صيّر الجزائر   جنة كل قاطن وزائر
محمد « بكداش » فخر الدولة   وحسن صبره عالى الصولة

ثم استردها الإسبان قهراً سنة (١١٤٣ هـ) بعد ما مكث المسلمون بها أربعا وعشرين سنة ، وإلى هذا التاريخ يشير محمد أبو راس المسكرى فى سينيته :

من بعد عشر وعشر ثم أربعة   عادوا إليها فقرت أعين النحس

استعداد محمد الكبير لفتح وهران

وفى فاتح صفر سنة (١٢٠٥ هـ) قرر محمد الكبير أن يسترد مدينة وهران من الاسبانيين ، وأرسل إلى الداى يشاوره فى الأمر ، فأذن له الداى (محمد عثمان باشا) فى ذلك ، فنادى الباى فى الناس حى على الجهاد ! وارسل إلى جميع نواحى « معسكر » رسله ليخبروا رعيته بما عزم عليه وصمم فى تنفيذه ، فأتته الناس زرافات ووحدانا ، واجتمع لديه جمع غفير من أهل كل ناحية من نواحى الإيالة الغربية فى مدة أسبوع منذ انطلاق الخبر ، فجعل أهل تلمسان ، وقليتة وما جاورهما من القبائل تحت قيادة ابنه عثمان« وتكفّل بقيادة أهل مازونة ومستغانم ، وقلعة بنى راشد ، وقبائل نواحى الشرق محمد بن ابراهيم (صهر الباى). ×

وجعل القسم الأكبر تحت قيادته ، ثم اتفق مع علماء « معسكر » وضواحيها أن يجمع الطلبة والمدرسين وقراء القرآن بقصد الرباط بـ« جبل المائدة » على مقربة من مدينة وهران ليثبطوا همة الاسبانيين ويحولوا بينهم وبين مايأتيهم من الخارج

من أسلحة ومؤن ، وكان عدد الطلبة يزيد على خمسمائة طالب ، يرأسهم محمد بن المولود التريسى ، وكان الاستاذ محمد بن عبد الله الجلالى والاستاذ الطاهر بن حواء قاضى « معسكر » قد كلفهما الباى باعطاء الدروس للطلبة أثناء الرباط كما أمر عليهم محمد بن عبد الله الجلالى أيضا ، ثم أمر بانشاء ثلاث طواحين ب « مسرقين » — خاصة بطلبة جبل المائدة ، وسهل لهم جميع مايحتاجون اليه ، ومنع إنشاء المدارس فى الايالة ماعدا جبل المائدة ، فإنه قد رخص فى إنشائها هناك ، وأمر مناديا ينادى فى الناس : أن كل من سكن جبل المائدة يعفى من دفع الضريبة . وإلى المرابطين بجبل المائدة (انرى) يشير أحمد بن سحنون فى أرجوزته « الثغر الجمانى » إذ يقول :

فكم بنى فى الثغر من أشراك لأهل وهران ذوى الإشراك

وقرر المرابطين فيه مرتبا لكل ما يكفيه

وهي إذ ذاك بلاد كفر لم يحظ من يقصدها بالظفر

. . . .

. . . .

ورتب المرابطين فى الجبل من كل حبر عن هوى الموت جبل

وكل مقدام همام وبطل منذ بدا بادى الضلال وبطل

مؤمرا لشيخنا الجلالى محمد الاحق بالاجلال

وراح الباى يعزز قواه بشراء الاسلحة من مختلف الأقطار ، فاشترى من الانجليز بجبل طارق عددا من المدافع ، وكمية كبيرة من البارود والرصاص ، واكترى سفنا من الإفرنج ليحملها بعد ما ضمن لها الأمان والنجاة عبر البحر ، ثم بعث أحمد بن هطال مع قاضى المحلة إلى المغرب الاقصى ليشتريا سلاحا

من هناك ، وبعث له قبائل ازوا كية كبيرة من البارود الذى كانوا يصنعونه فى جبالهم ، ثم أمر بصنع العربات لجر المدافع ، وعبد لها الطرق التى بين معسكر ووهران وأطلق سراح جميع المساجين ليكونوا عونا له على ما هو عازم عليه .

— وفى اثناء استعداد محمد الكبير للهجوم على مدينة وهران ، إذ بزلزلة تحرك المدينة من أقصاها ، فتهدم معظم بنيانها ، ولقى عدد كبير من السكان حتفهم ، وامتد تيار هذه الزلزال إلى مدينة معسكر ، إلا أنها لم تصب إلا بخسارة طفيفة جداً .

وكانت زلزلة وهران حافزا استعجاليا لمحمد الكبير ، فتحرك من مدينة معسكر يوم الخميس فى الثالث عشر من شهر صفر سنة (١٢٠٥ ﻫ) بخمسة آلاف مقاتل متوجها إلى مدينة وهران بقصد فتحها .

وبعد هجومات متوالية على أسوار المدينة ، قام بها جيش الباى فى غضون أسبوعين : قرر الباى أن يبقى جيشه هناك محاصرا للبلاد بالغا منتهاه فى الدقة والتنظيم ، حتى لا يتسرب للمدينة من الخارج أشىء من المؤونة أو العتاد .

وفى أثناء هذا الحصار ، توفى داى الجزائر محمد عثمان باشا فخلفه حسن الخزناجى الذى كان قد تبناه الداى ، ومنذ ذلك الحين أعطى لقب « باشا » . وقد دام هذا الحصار إلى أول محرم سنة (١٢٠٦) حيث رفع بسبب إبرام اتفاق صلح بين داى الجزائر وسلطان الأسبان ، ويتضمن الشروط التالية :

(ا) يسمح للأسبان أن يبنى مؤسسة قرب « مرسى الكبير » بشرط أن يدفع — فى مقابل ذلك — مائة وعشرين ألفا من الفرنكات (بالصرف الفرنسى) للدولة التركية الجزائرية .

(ب) يسمح للأسبان بالتقاط المرجان من شواطىء الجزائر الغربية .

(ح) يسمح للأسبان بشراء ألف شحنة من البر (القمح) الجزائرى .

(د) يسمح للأسبان — دون غيرهم من سائر الدول الافرنجية — بإرساء أجفانهم [illegible] «المرسى الكبير» شريطة أن يدفعوا للدولة التركية الجزائرية ثلاثا وستين فرنكا .

(هـ) تسلم مدينة وهران إلى الدولة التركية الجزائرية بجميع ما فيها من سلاح وما عليها من بناء مثلما كانت عليه يوم خروج مصطفى أبى الشلاغم سنة (١١٤٣هـ) .

(و) إخلاء مدينة وهران من جميع الجنود الإسبانيين فى فترة لا تتجاوز ستة أشهر من يوم تحبير عقد الصلح .

وجاء فى كتاب « طلوع سعد السعود .. » : « .. ودام حصاره لها بالقتل الصادر منه ، ومن جنوده وشدة صواعقه ومدافعه وكوره وباروده ، إلى أن فتحها فى أوائل المحرم سنة ست من القرن الثالث عشر بقتاله الذريع . ودخلها فى اليوم الخامس من رجب الفرد ضحى يوم الاثنين من سنته فى فصل الربيع ، وقد أقام النصارى بها فى هذه المدة الثانية . . . ثلاثا وستين سنة ، وفى الأولى خمسا ومائتى سنة . . . واختلف فى كيفية فتحها على ثلاثة أقوال ، فقال بعضهم : إن الأمير فتحها عنوة ، ودخلها بعد الزوال . وقال آخر : إنها فتحت بشدة الزلازل الحالة بها فى كل حين ، ففر منها النصارى دون علم من المسلمين ، ولما ذهب لها الطلبة ليلا للاختلاس والتجسس ، لم يجدوا أحدا عند أبوابها ، ولا بها حس ولا حسيس ، فتسوروا عليها من جهة رأس العين ، ودخلوها فوجدوها خاوية على عروشها ، ثم جالوها ، فرقى أحدهم المنارة ، ورفع صوته بالأذان ، وكان جهير الصوت ذا تطريب وألحان ، فسمع المسلمون ذلك وتحققوا بن الطلبة بأنتامهم ، فأتوها والأمير المؤيد بالنصر أمامهم ، فألقوا الطلبة مقبلين

على تلاوة القرآن ، فدخلها الأمير — رحمه الله — فى أمن وأمان.

وقال الحافظ أبو راس : « إن أمير المؤمنين السيد محمد بن عثمان باى الإيالة الغربية وتلمسان لما ضايق وهران أشد التضييق ، سأل منه النصارى السلم والتوثيق وراودوه عليه ، فأعطاهم الأمان على أمتعتهم وأنفسهم من غير امتهان ، فذهبوا منها وتركوا كل ما فيها للأمير فأخذه منهم بالقيمة . وقيل تركوها خاوية والأول منها هو الصحيح »[1] .

وبعد فتحه لوهران ، توجه إلى الجزائر حيث استقبله الداى حسين باشا استقبالا عظيما ومنحه « ريشة الانتصار » . ثم عينه بايا على مدينة وهران وجميع الإيالة الغربية بما فيها تلمسان وتيطرى . وعين ابنه عثمان خليفة له على ضواحى الغرب ، كما عين ابنه محمداً قائدا على قبائل « فليتة » . وقبل أن ينتقل الباى إلى وهران ليتخذها سكنا ، جمع العلماء ليستشيرهم فى شأن سكان وهران الذين كانوا أعوانا للأسبان وحربا على المسلمين فاتفق الجميع على أن يسمح لهم ما فرط منهم ويؤمنهم ، فأرسل إليهم فى الحين القاضى عبد الله بن حواء ، وسى أحمد بن سحنون الكاتب بالجامع الكبير ، وسى محمد بن فريحة ، فأمنوهم وعادوا مصحوبين بأربعين شخصاً من سكان مدينة وهران كممثلين لإخوانهم هناك .

فاستقبلهم الباى استقبالا حسنا ، وعفا عنهم وصفح عن جميع زلاتهم ، ثم انتقل بأهله وحاشيته إلى مدينة وهران حيث اتخذها سكنا ومستقرا إلى أن وافاه الله أجله ببلدة « صبيح » سنة (١٢١٣) وهو فى طريقه إلى مدينة الجزائر ، وقد دام حكمه عشرين سنة بايا مستقلا ، وسبعة أعوام خليفة مفوضا ، فرحم الله

(١) « طلوع سعد السعود فى أخبار وهران » مخطوطة بخزانتنا .

الباى محمداً الكبير رحمة واسعة ، وأسكنه جوار الشهداء الأبرار والصلحاء الأخيار . . [1]

أعماله وإنجازاته

لم يسمح لنا الوقت باستقصاء جل ما صنعه هذا الباى البار من حسنات شهدت بها أعداؤه فى الدنيا والدين ، ولعل ذلك كله نتركه لدراسة سنخصصها لشخصية هذا الباى العظيم .

أما فى هذه المقدمة ، فسنكتفى باقتطاف أقل من القليل من تلك الأعمال الخيرة .

(ا) اعتناؤه بالفقراء والمساكين

طرد الجاعة باختزان الحبوب وقت حصادها وتفريقها على المحتاجين عند الحاجة ، وكان ماباخو قصره بـ « معسكر » رهن إشارة الفقراء والجائعين وكان يوزع بنفسه الألبسة على العراة من الرعية ، لا سيما وقت الشتاء .

وكان يداوى بنفسه المرضى الفقراء ويعالجهم ويتألم لوجعهم ، وكان يوزع الأموال على الفقراء والطلبة والقائمين على خدمة المساجد فى كل مناسبة عيد ، أو موسم ، أو فرح ، وكان يبعث فى كل سنة بهدايا ثمينة إلى الحرمين الشريفين (مكة والمدينة) مصحوبة بعبد خصى لخدمة مسجد المدينة المنورة .

(ب) حرصه على الثقافة والمثقفين .

لقد كان يعتنى بالثقافة ويحب المثقفين ، لذلك بنى المدارس للطلبة ووفر لهم المؤن ، وهيأ لهم الوسائل التى تساعدهم على المضى فى طلب العلم واكتناز المعرفة

---

(١) دفن الباى محمد الكبير «بمدرسة خنق النطاح» فى مدينة وهران. وفى أوائل الاحتلال أتخذ جنود فرنسا مكان هذه المدرسة حماما يستحمون فيه. ولهذا السبب طمس قبر محمد الكبير ومحى ، ولم يعرف بالضبط مضجعه الكريم حتى الآن . وتعرف هذه المدرسة — فى وقتنا الحاضر — بـ « جامع الباى »

جاء فى « سعد السعود .. » : « .. وكان يحب الطلبة ، ولذلك بنى لهم المدرستين : الأولى بـ « المعسكر » والثانية بـ « وهران ». حكى أنه لما رفعت له الشكاية من أهل وهران بالطلبة ، وتكررت عليه ، أمر بإخراجهم من وهران لينظر فى ذلك ، فخرج الطلبة منها وانصرفوا بكلهم عنها ، وهو ينظر إليهم من علاه ، وقلبه متحير فى الأمر بكله ، فلم ير من لحقهم ورأى النساء درجن على الأسطح ، وأعينهم شاخصات نحوهم ، أسفاً عليهم ، وفى غم من أهل الصلاح ، فجاء آغته السيد قدور الكبير بن اسماعيل البحثاوى ، وقال له : ياسيدى لايليق بك ولابنا طرد الطلبة ، الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، ويتلون كتابه العزيز ، وإنما الأليق أن من فعل ذنباً يستحق به العقاب عوقب ، ومن لا ، فلا . والذين اشتكوا لك بهم بأنهم أهل الفتيات ، عليهم بحفظ أنفسهم وأهليهم مما ادعوه عليهم بغير إثبات . فقبل منه هذا الكلام ، وفرح به كثيراً وأمر بردهم لمحلهم ، فرجعوا بعد أن خرجوا منه ولما استقروا بمواضعهم ، واشتغلوا بصنائعهم ، ذهب إليهم على فرسه بشواشه ، متبختراً فى سيره ، وحين وصل إلى محلهم ، دفع لهم مالا كثيراً زيادة بقصد التبرك بهم . وقال لهم : أيها الطلبة اشتغلوا بالقراءة وكفوا أنفسكم عن الأذاية ؛ فما فى المدينة من يحبكم ، إلا ثلاثة فى المحبة سواء : وهم : أنا ، وآغة قدور بن اسماعيل البحثاوى ؛ والنساء » انتهى النص .

وكان يعظم العلماء ، فشيد لهم المساجد ورتب لهم مرتبات زيادة على المنح والهدايا التى يفاجئهم بها بمناسبة الأعياد والأفراح ؛ وما يمت إلى أمثال ذلك . ويكفينا دليلا ما ألفه علماء عصره من كتب نفيسة فى أخلاقه المرضية ، وسيرته المحمودة ، مثل كتاب « عجائب الأسفار » لمحمد أبى راس المسكرى ،

وكتاب « الثمر الجانى .. » لأحمد بن على بن سحنون ؛ وكتاب « الرحلة القمرية فى الأخبار المحمدية » لمصطفى بن عبد الله بن زرقة ، وغير ذلك من التآليف التى تدل على إحسانه المستمر لمن ألفها ويده الطولى على من صنفها . وكان يجمع العلماء ويشاورهم فى الأمر وينزل عند رغبتهم .

أما الشعراء ، فقد كان يجازيهم أحسن الجزاء ويجزل لهم العطاء ، ولنذكر من ذلك على سبيل المثال ، أنه أهدى إلى الحاج أحمد القرومى مائة محبوب ذهبا ، وأعطاه ألبسة تساوى خمسين محبوبا عندما مدحه بقصيدتين ، أولاهما فى تشييده للمسجد الكبير بمدينة معسكر ، وثانيتهما بمناسبة فتحه مدينة الأغواط ، وأحوازها. وقد ذكر ابن هطال كلتا القصيدتين برمتهما فى الرحلة التى نحن بصدد التقديم لها ، وكان يشجع الأدباء والكتاب بصفة عامة ، فقد منح أحمد بن سحنون مائة دينار ذهبا عندما اختصر كتاب « الاغانى » لأبى فرج الأصبهانى . ومنحه أيضا خمسين دينارا ذهبا جزاء عمل قام به ، وهو انتخاب ألفاظ طيبة من القواميس ، ومن أجل هذا كانت تتهاطل عليه المدائح الشعرية والنثرية ، فيأتى أصحابها اليه خماصا ويرجعون بطانا .

ومن يتصفح الكتب التى ألفت فى سيرته ، يجدها زاخرة بالقصائد الشعرية ، والأسجاع النثرية . ولم يكن محمد الكبير يتقبل الإنتاج الأدبى أو العلمى من المتقربين به إليه فحسب ؛ بل كان يحث على هذا الانتاج ، ويقترح مواضيع تناسب الظروف ، وتعود على الوطن وأهله بالخير العميم ، فقد كلف — أثناء غزوة وهران — رئيس الطلبة مصطفى بن عبد الله أن يجمع له الأحاديث الواردة فى الجهاد . ولم يترك هذا البار فرصة تفوته فى نشر الثقافة وإنماء الأفكار.

وكان يملك مكتبة ضخمة ، تحتوى على مختارات من شتى المخطوطات ،

وكان لا يكتفي بالمخطوطة الواحدة في خزانته ، بل يأمر بنسخ عدة منها لتكون في متناول أيدي جميع المثقفين ، وكان يبذل الأموال الطائلة في المخطوطات النفيسة ، فيشتريها ويضمها في خزانة القصر أو يحبسها على طلبة المدارس وعلماء المساجد ، وكان يبحث عن العلماء حيثما كانوا ، ويتقصى آثار المثقفين أنى بانوا .

وكان مولعا بالمطالعة وقت فراغه في شؤون الرعية ، وكان فقيها أديبا مطلعا على تاريخ العرب وأيامهم ، وكانت معرفته بالطب واسعة — على حد تعبير صاحب الثغر الجماني — وكان مغرما بمعالجة المساكين والفقراء اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم — حينما كان يعالج أصحابه رضي الله عنهم .

وكان يأمر بإحضار الأدوية بقصره لتوزع على الفقراء والمساكين مجانا تحت إشرافه .

(ج) اعتناؤه بالتشييد والبناء :

جدد بناء مدرستين بتلمسان وأرجع اليهما رونقهما ، وأعاد لهما حبسهما القديم ، وزاد عليه ، فأخذت المدرستان تستعيدان قوتهما العلمية من حيث الدراسات الدينية والأدبية بعدما فقدتاها مدة طويلة .

وبنى في الجزائر العاصمة دارا جميلة وأثثها ثم سلمها لوكلائه وممثليه هناك . وبنى في مستغانم قصرا جميلا ، كما شيد القصر الأنيق في مدينة « معسكر » — أيضا — وجعله منزلا جميلا جدا تحوط به حديقة غناء ، وأنشأ السوق العتيق بـ« معسكر »، وألحق الفندق الجديد — الذي بناه هو ايضا — بحبس الجامع الكبير ، ونقل الماء بالقنوات الى المدينة الجديدة بـ « معسكر » وقرية سيد علي بن محمد . وأنشأ مقبرة لمشاهير شخصيات معسكر . ووسع جامع السوق بمعسكر ، وزاد فيه رواقين من الأمام ، وجدد الجامع العتيق ، ووسع ساحته

وجلب اليه المياه ، وبنى خمسة أحواض للوضوء . واستبدل منبره بمنبر أحسن من ذى قبل . ثم شيد المسجد الذى يحمل اسمه : « جامع محمد الكبير » . وقد نال هذا المسجد إعجابا كبيرا من الجمهور ، فراح الشعراء يتغنون به ويترنمون بزخارف جماله وينشدون قصائدهم الرنانة فيه :

ألق العصا وفك رحل ركائبى بالمسجد المنشى بام عسكر
المحكم التشييد فى شرفاته فتراه يحسن كالرياض الممطر [1]

وحفر فى وسط المسجد (جامع محمد الكبير) بئراً وطواها ليغترف الماء العذب منها ويوزع على أحواض المسجد . ثم اشترى أرضاً تنز ينابيع الماء ثم أوصله فى قنوات إلى أحواض المسجد الستة عشر . وبنى مدرسة كبيرة وألحقها بذلك المسجد ، ثم حبس عدداً كبيراً من أسفار الكتب على طلبة تلك المدرسة وأساتذتها ، وأنشأ حماما (حمام الأدم) حول ذلك المسجد وحبسه على المدرسة والمسجد ، زيادة على مخبزة ودكاكين وأجنة ، وكل مرافق الحياة التى كانت مجمولة لاحتياج الطلبة والأساتذة ، وجميع موظفى المسجد والمدرسة . وكان موظفو ذلك المسجد يتألفون من خطيب للجمعة وإمام للصلوات الخمس وأربعة مؤذنين وسماع وأربعة أساتذة ومقدم للطلبة . وصنع مشهداً لسيدى أحمد بن يوسف دفين مليانة ، كما صنع مشهدا آخر لسيدى محمد بن عودة (بن خدة) . وبنى قناطر وجسورا ، وعبد الطرقات ، وحصن أسوار معسكر. وبنى فى أوائل السنة التى فتح فيها وهران بالموضع الذى، وقف فيه حصانه مسجدا للصلوات الخمس والجمعة ، ويعرف هذا المسجد عند سكان وهران بـ «جامع بناصف » لكونه كان به وكيلا . ثم بنى فى السنة التى تليها (١٢٠٧هـ)

---

(١) انظر القصيدة بأكلها فى الرحلة التى نحن بصدد التقديم لها ، ص :

قلة « البرج الأحمر »[1]. وبنى مدرسة « بخنق النطاح » التى بها ضريحه . وشيد الجامع الأعظم المعروف بـ « جامع الباشا » ، لأنه أمر ببنائه حسن باشا ، كما تكفل بمصاريف بنائه أيضا .

مكانته بين رؤساء الدول

كانت علاقاته مع رؤساء الدول الإسلامية حسنة جدا ، فقد كان يتهادى معهم الهدايا مرارا ، ويغيث من استنجد به لاسيما رؤساء الأقطار الثلاثة : مصر ، وتونس ، والمغرب . فقد لجأ إلى مدينة معسكر عبد الرحمن ولى العهد ابن مولاى محمد سلطان المغرب ، فرحب به محمد الكبير ، واحتفل بمقدمه احتفالا عظيما ، وبعد مدة مر بمدينة معسكر مولاى يزيد أخو عبد الرحمن السابق قاصدا بيت الله الحرام ، فاستقبله الباى محمد الكبير استقبالا حارا ، وجعل تحت تصرفه « قصر البستان » بما فيه ومن به . وبعد وفاة مولاى محمد خلفه ابنه يزيد المذكور فتنكر لسيرة أبيه وأخذ ينكل بحاشيته ، فنهم من قتل ومنهم من نفى ، ومن بين أولئك المنفيين إحدى الشخصيات المعتبرة يقال لصاحبها ابن خدة الذى توجه صوب مدينة معسكر حيث وجد من الباى محمد الكبير أكبر معين وأحسن رفيق ، فاستقبله استقبالا حسنا ووفر له

(١) جاء فى «طلوع سعد السعود» : «ثم هذا الباى .. أمر، بالهام من الله تعالى فى اليوم الحادى والعشرين من فتحه لوهران — بهدم الأبراج الموالية للبر ، وهى : برج مرجاجو ، وبرجارأس العين الكبير والصغير ، وبرج الوزير ، وبرج فرناند ، وبرج كارلوص وأشباهها من الابراج المواليه للبر . . .
وغرضه بذلك رفع الضرر عن المسلمين ، حسما لمادة النصارى ، فإن الباى أبا الشلاغم لما فتحها أولا ترك الابراج بلا هدم ، ولما رجع لها النصارى كان أول ضرر حصل للمسلمين من تلك الابراج ، فلذلك أمر — رحمه الله — بهدمها » .

كل ما يحتاج إليه من مؤونة وجوار وخدام وهلم جرا . .

وقد اختلف — كذلك — أحد خلف باى تيطرى مع رئيسه فالتجأ إلى مدينة معسكر فوجد فى الباى الكبير رغبته المنشودة، إذ استجاب له وهون عليه ، ثم عينه خليفة على ضواحى معسكر . وكذلك فر حسن باشا ابن باى قسنطينة إلى مدينة تلمسان فوقف الباى محمد الكبير بجانبه وأعانه فى كل أما يحتاج اليه وتوسط لإلحاق عائلته به . ولسنا بمبالغين إذا قلنا : بأن هذا الباى كان قبلة المستغيثين وكعبة المستنجدين ، يأخذ بيد الضعفاء والمساكين ويقيل عثرات من أطاح بهم الدهر الغدار ، وكان حسن باشا يعظم هذا الباى ويعترف له بشجاعته ونبله وفطانته ، ويقدمه على جميع بايات القطر ، رغم حساد قد كانوا يشون به إلى الباشا . وكان بايا قسنطينة وتيطرى يعتبران من أصدقائه الخلص . وكذلك كان باى تونس ، وسلطان المغرب فى محبتهما له وصداقتهما سواء . ولعل ذلك ناتج عن كرمه السيال ، فقد حدثنا صاحب « الثغر الجمانى » بأن هذا الباى كان يأتى إلى الجزائر مرة فى كل ثلاث سنوات لدفع الضريبة (الدنوش) المحمولة على الإيالة الغربية ، وكان شعب مدينة الجزائر ينتظر بفارغ الصبر وقت قدوم هذا الباى الكريم . وكان مجموع ما يدفعه لبيت المال — دون الهدايا والتبرعات — مائة ألف سلطانى ذهبا ، ومثلها يوزعها على الشعب . هذا زيادة على مايدفعه من قطع الحيوانات ، وكمية الحبوب والأقوات ، وعدد من العبيد والخيول المسومة ، التى يهديها إلى ذوى الوظائف السامية ، وكان يعطى مالا كثيرا لخدام المساجد ، وبمجرد وصوله إلى مدينة الجزائر يعم الفرح جميع البلاد . وكان يوم دخوله إلى الجزائر يعد يوم عيد للفقراء والمساكين .

اوصافه الحسية وأخلاقه المعنوية

كان أسمر اللون ممتلىء الجسم ، مربوع القد ، لا بالطويل ولا بالقصير ، وكان شجاعا نبيلا ، وفاضلا كريما سريع الغضب والرضى ، كثير الحلم والعلم ، قوى العزم ، والحزم ، محبا للسفر فى أنحاء إيالته ، وكان فارسا كبيرا ، لهذا كان كثيراً ما يعتنى بتربية الخيل العتاق ، فكان يوجد باصطبله أنواع مختلفة من الخيول ، وقد أمر ببذل الجهود فى الاعتناء بها والمحافظة على نسلها ، وكان صياداً ماهراً ، لذلك نجده مولعا بتربية البيزان والصقور ، قال ابن هطال فى الرحلة - « وقد اجتمع عنده [1] من الطيور الحسان المختلفة الأشكال والألوان مالم يجتمع عند غيره من الملوك ، فكانت ترد عليه من كل مكان فيقبلها ويجازى عليها الجزاء الكثير ، الذى أوجب جلبها ، فلما كثرت عنده صار يختار القوادم ويقدمها ويفضلها على غيرها » . [2]

وقبل أن أضع نقطة النهاية لهذا التقديم ، أود أن أنبه القراء إلى شىء واحد طالما تناسيناه مع أنه يجب الاعتناء به ، والتضحية بالوقت الثمين فى البحث عنه ، ذلك هو التراث الوطنى مهما كانت قيمته العلمية ، وكيفما كان شكله ومبناه ، فللأثمار أشجار ، وللفروع أصول ، وللشعوب أجناس ، وللأجداد تاريخ ، وعلينا نحن الأحفاد إبرازه للعيان ليبقى عبر الأجيال ، فإن كان خيراً اقتفيناه وافتخرنا به ، وإن كان شراً عرفنا أسبابه ، ولسنا بمسئولين عنه .

محمد بن عبد الكريم

(١) عنده : الضمير يعود على الباى محمد الكبير .
(٢) رحلة الباى محمد إلى الجنوب ، ص .

ملاحظة هامة

النسخ المعتمدة في تاريخ الرسالة

أولاها : مخطوطة خاصة توجد بخزانتنا ذات حجم صغير مربع ، خطها مغربي صمني واضح لونه أسود ، أوراقها بيضاء ، في كل صفحة منها ٢١ سطراً . وهذه النسخة مجهولة الكاتب ، ويبدو أن ناسخها قد تصرف فيها ، ولم يراع أمانة النص . ولهذا تكثر فيها الاسجاع الركيكة التي تقل في النسختين التاليتين — نسبيا — ، وقد رمزنا لها بحرفي (نخ) أي نسخة خاصة .

ثانيتها : مخطوطة بالمكتبة الوطنية (بالجزائر العاصمة) تحت رقم١٦٤٣ ، وهي — كذلك — ذات حجم مربع صغير ، خطها مغربي صمني واضح جيد ، لونه أسود احمر ازرق ، أوراقها بيضاء مشوبة بخضرة ، في كل صفحة منها ١٧ سطرا . وهذه النسخة فرغ من نقلها محمد بن البشير « آقراي » التلمساني في ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٠٢ هـ . وقد رمزنا لها بحرف (نج) أي : نسخة جيدة.

ثالثتها : مخطوطة بالمكتبة الوطنية (بالجزائر العاصمة) أيضا رقم ١٦٤٤ ذات حجم مستطيل صغير ، خطها مغربي صمني ردىء ، في كل صفحة منها ٢١ سطرا . وهذه النسخة يبدو أنها مجهولة الكاتب ، رغم أنها اختتمت بنفس العبارة التي ختمت بها النسخة رقم ١٦٤٣ ، وذلك لأنهما يختلفان في شكل الخط اختلافا كبيرا .

وعلى كل فإن إحدى النسختين ليست بخط محمد بن البشير « آقراي » قطعا لا ريب فيه .

منهاجنا فى تحقيق الرسالة

كان انتهاجنا لتحقيق هذه الرسالة على النحو التالى :

١ — محافظتنا على النص ، فلم نغير كلمة ندت عن المعنى المراد ، ولم نبدل حرفا قد وضعه القلم فى موضعه دون أن ننبه عليه فى حاشيه الرسالة .

٢ — شرحنا لبعض المفردات اللغوية التى يستعصى فهمها ، من حيث مدلول معنيها : العربى والعجمى .

٣ — اعتناؤنا بالأبيات الشعرية من حيث وزنها وقافيتها والبحث عن منشديها

٤ — ارجاعنا كل آية من آى الذكر الحكيم إلى سورتها وتحديد رقمها .

٥ — ترتيبنا لفهرس مراجع المقدمة والرسالة حسب الحروف المجائية .

٦ — ترتيبنا لفهرس الموضوعات الواردة فى المقدمة والرسالة ، حسب الحروف المجائية .

٧ — ترتيبنا لفهرس الاعلام والالقاب والكنى الواردة فى المقدمة والرسالة .

٨ — ترتيبنا لفهرس أسماء الأماكن والبلدان الواردة فى المقدمة والرسالة ، حسب الحروف المجائية .

٩ — تخريجنا لقوافى الأبيات الشعرية الواردة فى المقدمة والرسالة ، مرتبة حسب الحروف المجائية .

١٠ — تخريجنا لآى الذكر الحكيم الواردة فى المقدمة والرسالة ، مرتبة حسب السور .

١١ — ترتيبنا لفهرس القبائل والأجناس الواردة فى المقدمة والرسالة ، حسب الحروف المجائية .

١٢ — ترتيبنا لأسماء الكتب الواردة فى المقدمة والرسالة ، حسب الحروف المجائية .

١٣ — تخريجنا للألفاظ الأعجمية والإقليمية الواردة فى المقدمة والرسالة ، مرتبة حسب الحروف المجائية .

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

قال الشيخ الفقيه ، النحرير النبيه ، لسان الدولة [1] ، وفارس الجولة [2] ـ أبو العباس السيد أحمد بن محمد بن على بن أحمد بن هطال التلمسانى ـ كثير العلم وصحيح الأقوال ، رضى الله عنه .

الحمد لله « فالق الإصباح [3] ، وجاعل الليل سكنا » [4] ، ومخترع الأرواح ، ومصير الأشباح لها وطنا ، ومفضل الإنسان بالنطق المبلغ إلى كل منى. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد ، أفضل من سافر ومن قطنا [5] ، وعلى آله [وأصحابه [6]] . ما حرك ريح الصبا غصنا .

---

(١) لسان الدولة : كاتبها . وقد كان ــ بالفعل ــ كاتبا لمحمد الكبير .

(٢) فارس الجولة : خواض المعارك. وقد خاض عدة معارك إلى أن استشهد فى إحداها .

(٣) فالق الإصباح : شاق عمود الصبح عن ظلمة الليل ، أو عن بياض النهار، أو شاق ظلمة الإصباح ، وهو الغبش الذى يليه . والاصباح ــ فى الأصل ــ مصدر أصبح إذا دخل فى الصباح، سمى به الصبح . وقرىء ــ أيضاً ــ بفتح على الجمع .

(٤) سكنا : تسكن فيه الخلق من التعب . وجملة « فالق الاصباح ، وجاعل سكنا» اقتباس من آى الذكر الحكيم : سورة « الانعام . الآية : ٩٦ » .

(٥) هكذا ــ بألف قائمة ــ فى جميع النسخ .

(٦) الزيادة من نخ .

أما بعد : فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدرا ، وأ كلها محاسن [1] وفخرا، فهو أحد ما يطلق عليه علم العربية . كان أحق [2] ما تنفق فيه الذخائر السنية ، وتصرف إليه المهج الزكية [3] . إذ به عرفت قدماء الأمم ، وبه حفظت مكارم أخلاقهم والشيم. فاشتغلت به علماء كل قطر ،وصنفت فيه أدباء كل عصر ، حتى ملئت منه الخزائن ، وكثرت [فيه][4] الرسائل والدواوين . فبعضهم أخذ بطرف كفيه [5] ، وآخر اغترف بكلتا يديه . وبعضهم [6] أكترع لى المنهل ، وشرب شرب عب وعلل .ومع ذلك [7] ترى كل واحد يمدح بضاعته ويحليها [ويفضل بنات فكره ويجليها][8] ،ولكل وجهة هو موليها .

[وقد] [9] أردت أن أذكر منه نبذة ، أخدم بها [حضرة] [10] قامع المبغضين ، ومدوخ المارقين ، من جمع الله له خصال الشرف والمجد ، وموجات

---

(١) نخ : « محاسنا » .

(٢) نخ ، نر : « حقا » .

(٣) نخ : « الذكية » .

(٤) الزيادة من نخ .

(٥) نخ ، نر : « كفه » بصيغة المفرد .

(٦) نر : « وبعض » .

(٧) العب : شرب بلا تنفس . العلل : شرب بعد شرب بتنفس . وفى نخ : « وشرب شرب من عب وعلل » .

(٨) الزيادة من نخ .

(٩) الزيادة من قلنا : لأن السياق يقتضيها .

(١٠) الزيادة من نخ.

الشكر والحمد: محل الجلال والعظمة والجود، المخصوص بنصر الآراء والبنود [١]، ذا الأيادى العميمة، والمنن العظيمة، والسياسة السديدة، [والنعم المديدة] [٢] الذى انعقد على تفضيله الاجماع، وجعل من فلك اليمن والسعد فى درجة الارتفاع. كهف المسترع والنائى، الملحوظ برعاية الله [٣] [السيد محمد باى ابن مولانا السيد عثمان باى] [٤]، رحم الله السلف، وجعل البركة فى الخلف وخلف الخلف — آمين —. [٥]

مقتصرا على ذكر خروجه إلى جهة القبلة [٦]، عام تسعة وتسعين ومائة وألف. [٧] مقدرا — بالسوائع — [٨] مراحله، ومبينا منازله ومناهله. أقول — ومن الله أرجو المأمول — :

اعلم أنه لما اتفق نظر سيدنا المذكور — أطال الله بقاءه [وأيامه] [٩]، وجعل النصر دائما خلفه وأمامه — ، فى جهة القبلة [رأى] أنها ذات بلدان كثيرة، وأعراب راحلة ومقيمة [غزيرة] [١٠]. إلا أنها لم تنلها أيدى [١١] السلطنة.

---

(١) البنود: مفردها بند، وهو العلم الكبير. والكلمة فارسية الأصل.

(٢) الزيادة من نخ. (٣) نخ: «بعناية».

(٤) نخ. تر: «السيد محمد باى، السيد مولانا عثمان باى».

(٥) نخ: «آمين. فهو القوى المعين».

(٦) القبلة: الجنوب. (٧) الموافق لسنة (١٧٨٥ م).

(٨) السوائع: هكذا فى جميع النسخ. التى بين أيدينا ولم أقف على هذا الجمع، وإنما ما أعرفه عنه هو: ساعات وسياع وساع.

(٩) الزيادة من نخ.

(١٠) الزيادة من نخ (١١) نخ: «ابدا»

ولم يكن منها للملك مصلحة ولا منفعة [معينة] [1]. كأنها أمة أبقت [2] من أهلها، أو حرة نشزت [3] من بعلها [4]. فشمر لها عن ساعد الجد، عازما على رد ما بها من النفار والصد. فجمع جموعه وقواده [ونشر أعلامه] [5]، ولم يزد على أن كان جيشه حشمه [6] وخدامه.

فخرج يوم الخميس التاسع من ربيع الأول [7] بقومه وعسكره، من «المسكر» التي هي محل وطنه [8]. فنزل «واد الزلامطة» [9]، وبينه وبين المسكر ست ساعات [10]، ولما نزل أتاه [11] أهل «أنقاد» يطلبون منه التوجه لناحيتهم والذهاب إلى بلادهم [12] وعينوا له غنيمة كثيرة يأخذها في تلك الجهة [13] مع كونها قريبة المسافة [14]، حقيقة بالأمن والسلامة. فلم يرده ذلك عن مطلوبه، ولم يصرفه عن مرغوبه، وصرفهم بوجه جميل [15] وأصبح مرتحلا يوم الجمعة، ونزل «واد العبد». ومسافة ذلك خمس ساعات [16]

---

(١) الزيادة من نخ .
(٢) أبقت : هربت .
(٣) نشزت : استعصت ، وامتنعت .
(٤) بعلها : زوجها ، وحليلها .
(٥) الزيادة من نخ . والاعلام : الرايات التى تعقد على الرماح .
(٦) حشمه : كل من يغضبون له ، ويغضب لهم ، من أقاربه ، وجيرانه ، وجمع رعيته .
(٧) الموافق لليوم التاسع عشر من شهر جانفى سنة (١٧٨٥) .
(٨) نخ : « وطنه ومعسكره » .
(٩) نخ : « واد الزلامطة بغير آفات » .
(١٠) مشيا على الاقدام — آنذاك — .
(١١) فى جميع النسخ : (أتوه) على لغة أكلونى البراغيث . والتصويب من قلبنا .
(١٢) نخ : « بلادهم وضاحيتهم » .
(١٣) نخ : « الجهة كبيرة » .
(١٤) نخ : « المسافة بالعلامة » .
(١٥) نخ : « جميل فى غاية الشباب » .
(١٦) أى : مابين « واد الزلامطة » و « العبد » .

وقد كان أعد فى هذا الموضع شيئاً كثيراً من الشعير ، بقصد هذا السفر [١]، فشرع فى تفرقته [٢] بقية يومه ذلك كله [٣] ، وأقام هناك بالند لكمال تقسيم العلف ، فأخذ كل واحد على قدر دوابه [٤] ، ثم قسم عليهم الإبل يحملون[٥] عليها زادهم وعلفهم . فحصل للناس قوة وإعانة بذلك . وارتحل يوم الأحد ونزل « دير الكاف » ، و بينهما [٦] من المسافة ست ساعاتٍ [٧] . وقد ورد عليه هذا اليوم مشائخ الأعراب : كأولاد خليف والأحرار الشراقة وغيرهم[٨].

وفى يوم الاثنين ترك المحلة مقيمة هناك وركب غازيا على « العمور » ، فمشى ثمانى ساعات حتى نزل البيضاء [٩] . وهذا المنزل ذو آبار كثيرة ، وهى سهلة التناول [١٠] ، منها ما يكون ماؤها على قامتين ، ومنها ما يكون على أقل أو أكثر بقليل ، إلا أن بعضها أطيب من بعض .

فاستقت الناس ، وعلفت دوابها [١١]، وعندما نزل وردت عليه مكاتيب [من] الجزائر ، [وهى] أجوبة عن مكاتيب [١٢] الباشى [١٣]، فكان من

(١) نخ : « السفر الجديد » .

(٢) نخ : « تفريقته »

(٣) نخ : « ذلك كله من غير خلف »

(٤) نخ : « دوابه فى كل ذلك »

(٥) نخ : تر : « يحمل » .

(٦) أى : بين « واد العبد » و « دير الكاف » .

(٧) نخ : «ست ساعات باقتطاف » .

(٨) نخ : « وغيرهم بالانتخاب »

(٩) نخ : « البيضاء فى الجدور » .

(١٠) نخ : التناول بالمحض :

(١١) نخ : «دوابها وهم فى الفياشى » .

(١٢) فى جميع النسخ : « مكاتب الجزائر أجوبة مكاتب » ، والزيادة والتصويب من قلنا ، لأن تمام المعنى متوقف عليهما .

(١٣) الباشى : اسم رتبة من رتب ضباط الأتراك وكانت البايات تبعث آخر كل شهر قدراً معينا من المال إلى باشا الجزائر ، فيدفعه إلى أصحاب هذه الرتبة فسمى هذا القدر بمال « الباشى »

جملة ما استفيد منها (١) أن بعض أهل دائرة سيدنا « الباشة » ـ نصره الله ـ بعث فرساً أنثى من عتاق الخيل ، محبة ورغبة فى سيدنا (٢) ، كما أن الأحرار الترابة قدموا عليه فى ذلك (٣) الوقت بخيلهم التى اشترطها عليهم ، فقبلها منهم ، وأمرهم أن يأتوا له بخمسمائة جمل ، كلها جيدة قوية على الحمل . فقبلوا ذلك ، وطلبوا منه الأمان ، فأمنهم (٤) . وركب [مساء يوم الاثنين] (٥) وقت المغرب ، ومررنا بموضع يسمى « اللفيحة » فنزل قيمة بعض [الليل] للاستراحة . ثم أتم بقية ليله سائراً حتى أصبح فى « عين سيدى على » ، وتقدير هذه (٦) المسافة تسع ساعات (٧) ، فأقام يومه ذلك هناك إلى أن فات وقت العصر (٨) فركب وجد فى السير خمس ساعات ، ونزل «عين سيدى سليمان» ينتظر الطوالع (٩) فأتوه بخبر منزل القوم ، وأنه خلف الجبل (١٠) . فلما سألهم عن أسمهم : وجدهم غير الذين أرادهم ، فزجر الطوالع ووبخهم ، وقال لمشائخهم (١١) : إن لم تدلونى على ما ذكرت لكم ، فلا نقبل منكم غيرهم . فعند ذلك جدت الطوالع فى غارتها ، وتفرقت الخيل فى نواحيها — حتى أتوه عند « خنيق (١٢) الملح (١٣) »

---

(١) فى جميع النسخ : « منهم » ، والتصويب من قلنا .

(٢) نخ : « فى سيدنا الفضل » .

(٣) نخ : « فى تلك » .

(٤) نخ : « فأمنهم وهم فى الانشراحة » .

(٥) الزيادة من نخ . ر .

(٦) نخ : « هذا » .

(٧) نخ : « ساعات فى المستعلى »

(٨) نخ : « العصر بالمطالع » .

(٩) الطوالع : الأصل فى الطوالع الكواكب التى يتفاءل بطلوعها السعد ، أو يتشاءم بطلوعها النحس ، ويراد بها — هنا — رواد الجيش ، وكشافته .

(١٠) نخ : « خلف الجبل ما نخهم » .

(١١) أى لرؤسائهم .

(١٢) نخ : « عند خناق » .

(١٣) « الملح خيرهم » .

وبينه (١) وبين « عين سيدى على » تسع ساعات، لأن من « عين سيدى على » إلى « عين سيدى سليمان » خمس ساعات . ومن « عين سيدى سليمان » إلى «خنيق (٢) اللح » أربع سوائع (٣). وهذا الجبل كله من ملح ، إلا أن أكثره يظهر فى رأى العين أخضر ، والبعض منه كشفت ترابه الأمطار وغسلته ، فصار ملحاً أبيض ما يكون . فإذا نظر العاقل هذا الجبل ظهر له ما يدل على قدرة الله تعالى (٤) ، التى لا يعجزها ممكن (٥)، فسبحان مكون الأشياء بقدرته ومظهر العجائب بحكمته . وحيث (٦) أدركته الطوالع ، حسبما ذكرت فى هذا الموضع ، وأتوه بالخبر اليقين ، صح عنده شن الغارة على تلك الجبال والأودية (٧) .

فلم يبق (٨) واد إلا وفيه طليعة ، ولا جبل إلا وعليه كتيبة (٩) ، وكانت منازل القوم بعضها فى الوادى ، وأكثرها فى الجبل . فقصد « سيدنا » من كان فى الجبل منهم (١٠) ، ففروا هاربين بأنفسهم (١١) طالبين النجاة لذريتهم وعيالهم ، فأخذوا عن أجمعهم ، إلا من ستره الله (١٢) . وكذلك — أيضاً —

---

(١) نخ : « وبينهم » . (٢) نخ : « غناق » .
(٣) هكذا فى جميع النسخ التى بين أيدينا ، ولم أطلع على هذا الجمع ، وإنما ما أعرفه هو : ساعات ، وسياع ، وساع .
(٤) نخ : « تعالى المهيمن » . (٥) نخ : « الممكن »
(٦) نخ : « وحين » (٧) نخ : « والأودية بالتيقين »
(٨) فى جميع النسخ : « وادى » والتصحيح من قلمنا .
(٩) فى جميع النسخ : « كتيب » . والتصويب من قلمنا ، لأن الكتيب هو القربة المشدودة بالوكاء . وفى نخ : «كتيب سريعة » .
(١٠) نخ : « من كان منهم فى الجبل » . (١١) نخ : « بأنفسهم دون مالهم » .
(١٢) نخ « الله القدير » .

الذين فى الوادى ، قد أحاطت بهم الخيل ، ثم يمنع لا قليل ولا كثير . فغنمت منهم الناس « غنيمة » كثيرة : من خيام ، وفرش وأمتعة [١] . ثم جمع ما أخذ لهم من الإبل ، وحسبها فوجدها نحو ألف جمل . وأما الغنم فزهد فيها سيدنا ، ثم انتهبتها الناس بالذبح حتى ترى الرجل الواحد يذبح الشاتين والثلاثة والأربعة [٢] حتى استغنوا كلهم وفضل نحو أربعة آلاف ، أخذها سيدنا وبات مكانه . ويسمى هذا الموضع بـ « سلام » ، [٣] وبينه وبين « خنيق الملح » ثلاث ساعات [٤] ، ثم أصبح مرتحلا نحو « الخضراء » ، فوصل إليها فى ست ساعات ، فجاوزها بنحو [٥] الميل ونزل على « تاويله » [٦] ، وهما مدينتان كل واحدة لها بساتين كثيرة ، وماء غزير ومزارع ، إلا أن « تاويله » [٧] أكثر عمارة وأوسع مزارع [٨] ، فلما نزل المحلة ، وحطت الناس أثقالها ، وضربت خيامها وأخبيتها شرعوا فى نهبهما [٩] . أما « الخضراء » فلم يجدوا فيها إلا ما قل من الزرع والتبن [١٠] . وأما « تاويله » [١١] فقد وجد الناس [١٢] فيها من

---

(١) نخ : « وأمتعة كبيرة » . (٢) نخ : « والاربعة خلاف »

(٣) نخ : « بسلم » بلام مفتوحة مشددة ، وقد اشتبهت باء الجر بياء الكنية على المترجم « Gorguos » فنقلها فى تعجيمه للنص « بوسلام » ، انظر المجلة الافريقية لسنة (١٩٥٨ م) ، ص : ٥٦ .

(٤) نخ : « ثلاث ساعات بالمعلم » . (٥) نخ : « فى نحو » .

(٦) نخ : « تاولالة » . (٧) — نخ : « تاولالة » .

(٨) نخ : « . . . مزارع من الخضرا تايلالة » .

(٩) « فى نهبهما ، وجالت جولتها » .

(١٠) نخ : « والتبن التوالى » (١١) نخ : « تاولالة » .

(١٢) كلمة : بعض ، ساقطة من نخ .

القمح والشعير وغيرها من الحبوب ما لا يحصى عدده الا الله تعالى . وقد وجدوا فيها [بعض] [١] الامتعة ، وأصاب [فيها] [١] بعض الناس بيتاً مملوءاً من الرمان . وهذا دليل على كثرته بهذا البلد ، لأنه ليس وقت إبانه [٢] .
وأما أهلها من الرجال والنساء فسمعوا بقدومه قبل وروده عليهم ، فهربوا بأنفسهم وذراريهم [٣] وتفرقوا فى رؤوس الجبال وبطون الأودية ، ولم يأخذوا من أمتعتهم إلا ما خف حمله ، وكثر سومه ، وتركوا ما عدا ذلك [٤] ، فصار كله غنيمة للجند . فأقام بها يومين والناس لم يفترو من نقل حوائجها وزرعها .
ثم ارتحل منها ونزل « الخير » [٥] وهذا المنزل فيه ثلاث عيون ، كل عين منها فى غاية ما يكون ، فى صفاء الماء وقوته ، واتساع الأرض التى تسقى به [٦] . ثم تلك العيون مفترقة فى أماكن ينابيعها [٧] ، وحيث انفصلت عن أماكنها ، انحدرت من بلادها ، اجتمعت فوق المضيق ، الذى يقال له : « رأس واد شلف » . ومنه إلى أسفل يسمى « سبقاق » [٨] وقد أخبرنى من أثق به : انه « الشلف » [٩] على التحقيق . وقد وصف لى طريقه ، وسمى لى جميع البلاد التى يمر عليها ، حتى أوصله إلى قرب مليانة [١٠] وكان هذا الرجل من أهل

---

(١) الزيادة من نخ . (٢) نخ : « إبانة بالبيان » .
(٣) نخ « وذراريهم ، وما إليهم » .
(٤) نخ : « ما عدا ذلك بنفعها » .
(٥) « الخير » : — بفتح الخاء وفتح الياء المشددة كما ضبط فى نج .
(٦) نخ : تسقى به لشدته » . (٧) نخ : ينابعها وملادها » .
(٨) نخ : « سيقاق » . (٩) نخ : « السلف » .
(١٠) مليانة : هى ثالثة الثلاث : الجزائر ، والمدية ومليانة . وقد أسس جميعها « بلكين » ابن « زيرى » بن « مناد » . الصنهاجى . بعد الستين من القرن الرابع الهجرى .

هذا البلد ، بل هذا الخبر شائع عند أهل تلك البلاد [١] . فلا ينكره أحد منهم [٢] . وكانت المسافة بينه وبين « تاويله » [٣] ست ساعات فبات الناس على هناء [٤] .

وبالغد طارت القوم فى غبش [٥] الظلام إلى مدينة بقرب « الخير » يقال لها « تادمامه » . فهرب أهلها ، وأخذوا ما قدروا على حمله وعاجلوهم [٦] عن الباق [٧] . فأخذوا ما وجدوا فيها من قمح وشعير ، وغير ذلك . وهذا ما كان فى ذلك اليوم .

ذكر على (المحلة) [٨]

سبق لنا أنه تركها فى « دير الكاف » ، وذهب غازيا .

اعلم أنه لما أصبح يوم الاثنين عازما على ما أراده ، قاصدا لما يكمل مراده . وكان مصاحبا له فى هذه المحلة قرة ناظره ، وعضد ساعده [٩] ، صاحب الفخر والامتنان ، جامع شتات الفضل والإحسان ، وارث مجدة : ابنه السيد عثمان ، فأمره أن يقوم بأمور « المحلة » ، ويسير بها رائدا من غير عجلة [١٠] . فأقام يومه ذلك [١١] ، وبالغد ارتحل ، ونزل « السيد عبد الرحمن » [١٢] . ومنه نزل

---

(١) نخ : « البلد » .
(٢) نخ : « منهم عناية » .
(٣) نخ : « تاولالة » .
(٤) نخ : « هناء ليست فيها ندامة » .
(٥) نخ : « غلس » ، وكلا اللفظتين معناهما ظلمة آخر الليل .
(٦) نخ : « وعاجلهم » .
(٧) نخ : « الباقى بترك القوم » .
(٨) نخ : « ذكر على المحلة غازيا » .
(٩) نخ : « ... ساعده وخاطره » .
(١٠) نخ : « بغير العجلة » .
(١١) أى يوم الاثنين .
(١٢) اسم مكان ، سمى باسم شخص صالح يقال له « السيد عبد الرحمن » . وفى نخ : « السيد عبد الرحمن بالمهل » .

عبد الرحمن. وفي نخ: السيد عبد الرحمن بالمهل.> ومنه نزل)القطيقة(وأقام بها لكثرة الأمطار، وشدّة الوحل، وارتحل من القطيفة، ومر بالبيضاء<نخ: بالبيضاء وبها لم ينزلوا.> فأمرَ الناسَ أن يسقوا دوابّهم، ويأخذوا الماء لأنفسهم، ففعلوا. ثمّ جاوزها ونزل بمكانٍ قريب منها<نخ: منها بغير الاختلاق.> ثم ارتحل ونزلَ)الحليات(. وبالغد ارتحل فنزل)مركانه(<نخ:. ونزل بمزكانة.> ثم ارتحل ونزل الحليات. على يمين)واد سبقاق(، بنسبة الذاهب بجهة القبلة<نخ: القبلة باتفاق.> ولما غشيَهم الليل، طمع بعض أعرابِ تلك الجهة في سرقة المحلة، فاختفت جماعة منهم، وصاروا يحتالون على كيفيّة الوصول إلى الإبل، أوغيرها من دواب المحلة<الزيادة من نخ.> فإذا ببعض الترك كشفوهم<في نج. نر: كشفهم.> وخربوهم فأصابوا واحداً)منهم(<الزيادة من نخ.> فقتلوه وقطعوا رأسه<نخ: وقطعوا رأسه لما استنكرهم.> وأتوا به لصاحب)المحلة(: السيد عثمان ابن سيدنا، فأعطاهم دراهمَ وشكرهم. ثمّ ارتحل منه ونزل)الخيُّر(، فاجتمعت المحلتان، والتقّت الفرقتان. فكان يوم عيد، وعند كل واحدٍ فرح جديد.

واشتدّ البرد في هذه الدار<نخ: الدار بالفحو.> ونزل مِن الثلج ما كانت الناس تظنُّ أنّ مثل ذلك لا يقع في الصحو، لتسويتهم بين سهلها وجبالها<أي أنّ الناس كانوا يظنّون أنّ الصحو في السهول مثله في قِمَم الجبال.> مع أنّ هذا الجبل ذو<في جميع النسخ: ذا.والتصويب من قلمِنا.> بردٍ شديد<نخ: شديد مفرق للرفقات.> وهو مرتفعٌ جداً، ومياهه كثيرة، فكان له شبه بجبال التلّ، بل هو أشدُّ برداً منها في بعض الأوقات. ولمّا رآه<الضمير يعود على الثلج، والرائي هو محمد الكبير. وفي نخ: رأوه بصيغة الجمع.> قد كثر، ولم ينقطع خافَ منهُ على الإبل، فارتحلَ وسار أربع ساعات ونزل)قصر أوفل(<هكذا في نج، ونر. ولعله قصر آفلو وفي نخ: واد الإبل الحربية.> فتركه ذات الشمال، ونزل جهته<نخ: جبهته.> الغربية، وعندما نزلتِ المحلة قصدّتِ القومُ<القوم: الفرسان: الخيالة.> هذا القصر، لأجل الشعير والقمح وغير

ذلك<نخ: وغير ذلك ليأخذ كلّ ما له ناب.> فوجدوا أهله هربوا مِنه ولم يتركوا شيئاً ظاهراً، فبحثوا في أماكنه الخفية، فبعضهم أصاب، والبعض خاب. وفي هذه الدار<أي: قصر آفلو، أوفل.> قدمت عليه طوائف العرب مثل)أولاد صالح(و)وأولاد يعقوب(القبالة، و)أولاد يعقوب(الغرابة<نخ: الغابة.> وغيرهم. وكلّهم أتوا ب)القادة(<القادة: قُوّادهم ورؤساؤهم، والكلمة أقليمية النزعة. وفي نخ: بالقادات.> طالبين الأمان لأنفسهم متحمِّلين لما فُرض عليهم<نخ: عليهم لنيل خيرهم.> فجعل على كلِّ قبيلةٍ منهم شيئاً معلوماً مِن الأبل والخيل وأمّنهم، وكساهم، ورفعَ عنهم ما هم فيه من الخوف والويل.

ففرحوا بالأمان فرحاً شديداً، وذهبوا مبشِّرينَ أهلَهم بعافية وطيِهم وعمارته ومخبرينهم بسطوة الملك<نخ: عليهم لنيل خيرهم.> وكرامته. وبقيَ بهذا المنزل يومين وارتحل، فمشى ست ساعات ونزل)وارّن(<بهذا اللفظ في نج، ونر. وفي نخ: وبالروان نزل. وقد شكَّ المترجم

ست ساعات ونزل «وارّن»[1] على حاشية الوادى[2] من الجهة الشرقية. ومن الجهة الغربية يصعد إلى القمدة[3]، التى يضرب بها المثل فى الصعوبة المحيطة بها سبعة أدوار[4]، فلذلك اشتهرت بهذا الاسم[5]. فتجد البعض يسميها «سبعة أدوار»، والبعض يسميها «القمدة». فالقمدة عندهم علم بالغلبة على الوضع المخصوص فى طرف «جبل راشد»[6]. وقد انحاز إلى هذه القمدة جميع من فى هذه الجهة من الاعراب وامتلأت منهم الأودية، والجبال والشعاب، ظنا منه أنها تنجيه، وتمنعه ممن يطمع فيه وتحميه، فاعتمد عليها، وفوض أمره إليها، حتى أنه رقد بالنوم، ولم يشعر بما تصنع قدرة الحى القيوم. وعند المساء أمر مناديه[7] أن ينادى بين أجناده: ألا أنه إذا طلع الفجر، فليتهيأ الراكب والعسكر[8]. ولما أصبح الله بخير الصباح، وركب سيدنا، وقصد «سبعة أدوار» بخيله ورجله، و«لكل امرىء منهم — يومئذ — شأن يغنيه»[9] فلما أحست به الأعراب التى فى القمدة تحصنوا فى جبل وعر، وواد حصين، بحيث

---

(١) بهذا اللفظ فى نج، ونر. وفى نخ: «وبالروان نزل». وقد شك المترجم فى تركيب كلا فى اللفظين، وتحقق من دخول تصحيف عليهما. أنظر: «المجلة الأفريقية» لسنة (١٨٥٨ م)، ص: ٥٩.

(٢) فى جميع النسخ: «الواد»، والتصويب من قلمنا.

(٣) نج، نر: «القمر».

(٤) نخ: «أدوار كالجمورية».

(٥) نخ: «الاسم فى الرخاء والشدة».

(٦) نخ: «راشد المرتفع».

(٧) نخ: «مناده».

(٨) يقصد بـ «الراكب» الفرسان، وبـ «العسكر» الجنود المشاة.

(٩) هذا اقتباس من آى الذكر الحكيم سورة: «عبس». الآية: ٣٧.

ان الرائى إذا تأمله وتحقق حصنه ووعره ، علم أنه لا نظير له [1] . فلم يلبثوا إلا قليلا حتى أحاطت بهم القوم [2] من كل جهة [3] ، وجعلت تلتقط أنعامهم ، وتنهب خيامهم ، وأمتعتهم حتى أخذوا [4] عن آخرهم ، ثم وصل اليهم العسكر وصار يلتقطهم من تحت الأحجار ، ويخرجهم من النيران ، حتى أنه لم يبق منهم واحد إلا وهو واحد من ثلاثة [5] : إما قتيل ، أو أسير ، أو مقطوع الأذن حسير [6] ، بعد أن كان فريد دهره ، وواحد عصره . وقد نبه سيدنا على أن المرأة لا يتعرض لها [7] ، ولا يأخذ أحد شيئا من لباسها ، صونا لحرمتها وتنزيها عن حقارتها [8] . فلما رأى ما حل بهم أدركته الشفقة عليهم . فأمر باطلاق الشيوخ والصبيان ، وترك [9] الكهول ، والشبان والأعيان ، حتى أوصلهم إلى « المحلة » ، وباتوا على حالهم تلك الليلة ، وعند الصباح جمعهم وأعطى لكل من جاءه بواحد منهم [العدد] [10] الذى سمّى له ، ثم أطلقهم ، منا منه عليهم ، راجيا أجر ذلك [11] ، وراغبا فى ثواب ما هناك [12] . وكان أكثر ما أدركته الرقة حين رأى شيخا كبير السن من ذرية بعض الصالحين أنه لا يقدر على المشى ، أمر خدامه أن يحملوه ، وكساه واعطاه دراهم [13] ، وبالنقد أعطاه

---

(١) نخ : « لا نظير له فى التحقيق » (٢) أى : الفرسان (الخيالة) .

(٣) نخ : « جهة فى محاصرهم » (٤) أخذوا : بالبناء للمجهول » .

(٥) نخ « من ثلاث بالبيان » (٦) حسير نادم ، متلهف .

(٧) نخ : « لها فى خفارتها » .

(٨) حقارتها : يريد بحقارتها ـ هنا ـ ضعفها وعدم استعدادها لمقاومة الشدائد .

(٩) وترك : أى تركهم قيد الاسر . (١٠) الزيادة من نخ ، تر .

(١١) أى : أجر ذلك المن . (١٢) أى : فى الدار الآخرة .

(١٣) : « دراهم ، ولم يكن فيه من الزاهدين » .

فرسا ، وزاد له كسوة أخرى، ودراهم، ورده لأهله مكرما[1] . وهذا الرجل أصله من « النيشة » يدعى « السيد[2] الموهوب » . وأما الغنم والبقر ، فلم يأخذ شيئا من ذلك ، لأنه كان يتفضل [بها][3] على خدامه ، بل قال لهم : من أخذ شيئا فهو له[4] وأمر أن يعلن بذلك المنادى ، حتى صار شائعا ، ذائعا عند كل حاضر وبادى[5] . فجعل الناس يقسمون القليل والجليل ، ويركضون فى كل صاعد ونزيل . وحصل لهم سرور ونعمة ، وتباعدت عنهم كل فاقة ملمّة . فلا تسمع إلا هذا صائد يطرد ، وهذا صائح بمربد[6] . والكل معلنون بحياة سيدنا ومبتهلون بالدعاء بنصره ، وتخليد الخلافة فى نسله وفرعه[7] .
ثم أن بعض العرب من أهل « هذه القعدة » ممن أسعده[8] الله حين صعد سيدنا اليها[9] تمسكوا[10] بالمشائخ الذين معه ، واعتذروا بضعفهم ، وقلة معرفتهم بالملوك . فصالحوه على أن يعطوا له أربعمائة رأس من البقر ، ومائة حمل من

(١) نخ : « مكرما فى حالة المحبوب » .
(٢) نخ : « بالسيد » .
(٣) نخ : « بها » . نخ ، تر : . والتصويب من قلنا .
(٤) نخ : « له وصمم فى كلامه » .
(٥) أى : حضرى ، وبدوى .
(٦) بمربد : هكذا فى جميع النسخ . ولعله : يزرد ، لأن العربدة لردة سوء الخلق،لاهذا لا يتناسب مع سياق كلام المؤلف .
(٧) نخ : « وفرعه باشره » .
(٨) فى جميع النسخ : « سعد . . . » والتصويب من قلنا ، لأن سعد لا يتعدى .
(٩) نخ : « اليها لسلوك » .
(١٠) نخ . تر : « فتمسكوا » .

الشعير [١] . وأما الخيل لم يكن عندى [٢] تحقيق فى كم ما دفعوا له [٣] فحين تيقنوا حزمه [٤] ورأوا جده وفعله ، علموا أن التراخى لا يمكن شغله [٥]، ولا ينفع التأنى فى خدمته . فذهبوا مسرعين بجميع ما أمرهم به [٦] ، فلم تطمئن أنفسهم [٧] حتى أتوا بجميع ذلك ، ورجعوا بين خوف ورجا ، طامعين أن يجعل الله لهم بطاعتهم فرجا . ثم ارتحل عنهم ، وجاوز « واد مرة » فى ثلاث ساعات [٨] .

وجد فى سيره حتى نزل « الدبداب » على ست ساعات ونصف . وهذا الموضع هو رأس « واد القصب » [٩] . وكما يسمى « الدبداب » يقال له : أبو شكوة أيضا . « والكرط » فى جهته الشرقية على نحو الميلين ، وفوقه «حاس الحار» على نحو ثلاثة أميال [١٠] . والجبل الذى فى قبلته يسمى «الأخضر» وفى طرف « الأخضر » من جهة الشرق قرية ، تسمى : « الشارف » ، وحيث نزل هذا الموضع ذكرت له مدينة ، وهذه المدينة تسمى : « زنينة » [١١] ، قريبة من « الدبداب » بنحو أربعة سوائع . [١٢] وهى لبعض الأعراب الذين لا حكم

---

(١) نخ : « حمل شعير »
(٢) نخ : « حمل شعير »
(٣) نخ : « فيكم فادفعوا له بالتحرير »
(٤) نخ : « حزمه وقوله .
(٥) نخ : « فى شغلته »، وعبارة النص لم تؤد تمام المعنى .
(٦) نخ : « به فى ذلك »
(٧) نخ : « نفوسهم » .
(٨) نخ : « فى ثلاث ساعات بلا عنف .
(٩) نخ : (واد القصب محضا »
(١٠) نخ : « ثلاث فى المتقارب » .
(١١) نخ : « ذكرت له مدينة تسمى الزنينة فى لشائع » .
(١٢) سوائع : هكذا فى جميع النسخ التى بين أيدينا والصواب ساعات ، أو سياع ، أو ساع .

عليهم لأحد . وأهلها أصحاب قوة ، وعدة ، وعزة [1] . وقد ذكروا له أن باى (تيطرى) نزل عليها فطردوه [2] ، وقتلوا له رجلين ، وذهب مذموما مدحورا .

فلما سمع كلامهم على هذا الوجه اشتد حرصه عليها ، وأراد النزول بقربها ، فراوده بعض من كان معه من المشائخ أن لا يذهب إليها ، وأن لا يكشف حريمها [3] . ووصفها له بالحقارة وعدم الطاقة . وقال له : ليس فيهم قدرة على ملاقاتك [4] ، وهم مشتغلون فى خدمتك ، وأنهم يجمعون خمسة وعشرين ملوكا ويقدمون بهم [5] لحضرتك . فأبى عن خدمتهم ، ورغب عن طاعتهم ، ولم يرد إلا عقوبتهم [6] لجسارتهم على (الباى لار) ، وأخذته الأنفة عليهم ، ولكن استصغرهم فى عينيه . فملت همته أن يتولى قتالهم بنفسه [7] ، فأمر خليفته ومتولى خدمته ، [من له قدمه] [8] فى المفاخر السيد محمد بن عبد الله [9] أن يذهب إليها ، ويرجف بخيله وركابه عليها ، وحيث سمع كلامه نهض إليها ، وأخذ معه بعض العسكر [10] . فلما رآه [11]

---

(١) نخ : « قوة ، وعزة ، وذو عدد » .

(٢) نخ : « فطردوه محقوراً » .

(٣) نخ : « حريمها بحربها » .

(٤) نخ : « ملاقاتك الشاقة » .

(٥) فى جميع النسخ . « بها » ، والتصويب من قبلنا .

(٦) نخ : « عقوبتهم باشتهار » .

(٧) نخ : « بنفسه فيما لديه » .

(٨) الزيادة من نخ .

(٩) نخ : « محمد بن عبد الله من المشاهر » .

(١٠) نخ : « العسكر للنزول عليها » .

(١١) فى جميع النسخ : « رأوه » على لغة أكلونى البراغيث . والتصحيح من قبلنا .

أهل تلك القرية [1] علموا [أنهم] [2] لا قدرة لهم ولا طاقة لملاقاته . فخرجوا منها بأجمعهم ، ولم يأخذوا شيئاً من أمتعتهم وقوتهم [3] ، وتركوها « خاوية على عروشها [4] » ، أسيرة في يد محقوتها [5] فدخلها من غير حصار عليها ولا قتال [6] فانتهبت جميع ما فيها من القماش و « الغرائر » [7] والسمن وغير ذلك مما ترغب فيه النفوس . وقد وجد فيها من القمح والشعير [8] ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى ، فحملت منه الناس شيئاً كثيراً [9] وأكثرهم يرغب في الشعير دون القمح . فتراهم يفتحون المطامير ، فإن وجدوه شعيراً حملوا منه ما قدروا عليه ، وإن وجدوه قمحاً يأخذوا منه شيئاً [10] ، وكر [11] راجعا لمحلته ، ظافراً [12] بحاجته ، فأقام [13] في البلد في هذه الدار [14] . وقد كان ورد عليه أهل تاجموت [15] وأهل عين ماضى [16] بعلمائهم وكبرائهم ، يريدون خدمته كآحاد [17]

---

(١) نخ : « القرية وكثرة جيشه وطاقاته » . (٢) في نج . تر : « أنه » .

(٣) نخ : « وقوتهم وسلبهم » .

(٤) اقتباس من آى الذكر الحكيم ، « سورة البقرة » ، الآية ٢٥٩ .

(٥) نخ : « بمقوتها بفروشها » . (٦) نخ : ولا قتال يسوس »

(٧) الغرائر : مفردها غرارة بكسر أوله ، وهى الجوالة التى تنسخ من صوف ، أو وبر ، أو شعر ، بقصد جعلها ، أوعية الحبوب .

(٨) نخ : « والشعير ومالا به يبالا » . (٩) نخ : « كثيرا بالعز والفرح » .

(١٠) نخ : « شيئا ولا يرجعوا إليه » .

(١١) الضمير في « كر » يعود على محمد بن عبد الله) .

(١٢) نخ : « ضافرا » بضاد غير مشالة .

(١٣) الضمير من « فاقام » يعود على الباى محمد الكبير .

(١٤) المراد بـ« الدار » = هنا = « الدبداب » (١٥) نخ : « تاودموت » .

(١٦) نخ : « عين ماصى بالاشتهار » .

(١٧) في جميع النسخ : « كأحد » . والتصويب من قلمنا .

الرعية، ويلزمون أنفسهم بشيء يرتضاه [1] ، حتى تأتى على جميعهم المنية .
فقسط لكل واحدة منهما قسطا معتبرا [2] يعطونه فى كل عام إلى آخر الدهر .

وجعل لهم شيئا معلوما — غير الذى التزموا على الأبد — [3] يؤدونه [4] إليه فى هذه السنة خاصة فقبلوا ذلك كله ، وشرعوا من حينهم فى دفعه ، [5] فكانوا [6] يدفعون الدراهم ، والصياغة [7] ، والثياب ، والخيل . ثم ارتحل من « الدداب » ونزل « الحواجب » [8] قبالة « تاجموت » [9] . ومسافة هذه الرحلة ثلاث ساعات [10] وبهذه الدار عيون كثيرة ، وماؤها عذب سائغ للشاربين [11] ، وتحته مزارع تسقى منه، وبينه وبين « تاجموت » [12] نحو ثلاثة أميال . وفى هذه الدار دفع [13] أهل « تاجموت» [14] جميع قطيعتهم التى تحملوها ، وشرع [15] أهل « عين ماضى » فى الدفع ، [16] ثم ارتحل ونزل « أم الضلوع » على ثلاث ساعات

---

(١) نخ : « بما يرتضاه » . (٢) نخ . « القسط المعتبر » .
(٣) نخ : « على الأبد ليس مقاصة » .
(٤) نخ : « يؤده » . نج . نر : « يؤدوه » . والتصويب من قلنا .
(٥) نخ : « فى دفعه فى النهار والليل » . (٦) نج : « فكأنه » .
(٧) الصياغة الحلى من الذهب والفضة . والكلمة عامية ؛ لأن « الصياغة » حرفة الصائغ .
(٨) نج . نر : « الجواجب » . (٩) نخ . « تاودموت » .
(١٠) نخ : « ساعات فى الثبوت » . (١١) نخ : «الشاربين مدة الآجيال» .
(١٢) نخ : « تاودموت » .
(١٣) فى جميع النسخ : « دفعوا » والتصويب من قلنا .
(١٤) نخ : « تاودموت »
(١٥) فى جميع النسخ : « وشرعوا » والتصويب من قلنا .
(١٦) نخ : « فى الدفع القطيعة التى تحملوها » .

من « الحواجب » . وعندما وصل المنزل قدمت مشائخ « بنى الأغواط »[1] وعلماؤهم ، وبأيديهم [كتاب][2] صحيح البخارى — رضى الله عنه — طالبين الأمان على أنفسهم وأهليهم[3] ، وهم مذعنون بالطاعة ، قابلون أن يكونوا رعية على أن يعطوا مائة خادم وخمسة آلاف سلطانى ، ومائة ثوب وأربعة أفراس . فلما رأى حرصهم على هذا الأمر وتحملهم ورضاهم بذلك القدر قال لهم : أن أتيتم بما ذكرتم ، ووفيتم بما وعدتم فلكم منى الأمان — وأى أمان — ، ثم كساهم كلهم ، كما كانت عادته مع غيرهم ، وزاد لكبيرهم « منطقة »[4] فائقة ، و « حلة » رائقة . وطلبوا منه أن يقيم فى هذا الموضع[5] حتى يدفعوا له جميع ما التزموه . وانصرفوا ، وبعث معهم خدامه[6] « الخازنية » لخلاص ذلك على العادة المعلومة فى الرعية . فلما وصلوا لبلادهم ، وتفكر سيدنا فى أمرهم فوجد أنه لم يجعل عليهم شيئا معلوما ، يؤدونه فى كل عام ، ويأخذ عليهم عهدا فى ذلك[7] ، مع أن هذا هو المقصود بالذات . وأما غيره — ولو كان كثيرا فى نفسه — فهو تابع ، غير مقصود . فكتب لهم كتابا يعلمهم بما نسيه وأنه هو المراد[8] . وبقى وبعث به مع بعض « قياده »[9] ، فطرقهم به ليلا ، إلا أنه وجد نياتهم قد تحولت وطوياتهم قد فسدت ، فاجتمعوا عليه لقراءة

---

(١) نخ : « بنى الأغواط لنيل المراتب » .
(٢) الزيادة من نخ . تر . (٣) نخ : « وأهليهم لسن النبراس » .
(٤) منطقة : — بكسر الميم وفتح الطاء — ثوب يتمنطق به .
(٥) نخ : « الموضع الذى فيه بالعدد تكلفوا » .
(٦) نخ : « خدامهم » . (٧) نخ : « فى ذلك الالتزام » .
(٨) نخ : « المراد بالمقصود » . (٩) « قياده » : قواده والكلمة أقليمية عامية

الكتاب، وبقى حامله وأصحابه منتظرين [1] ما به من الجواب . فلما فتحوه ألفوه مخالفا لغرضهم، فجعلوه سببا لنقض عهدهم وحجة لكرم .وقالوا — كلهم — هيهات ، هيهات ، فلا يكون شيء من هذا مدة الحياة [2] .

ثم أمروا « الخازنية » بالارتحال عنهم سالين وإلا يذهبون [3] نادمين . واشتغلوا بعمارة الأسوار ، ويقولون لبعضهم بعضا [4] : الحصار الحصار ، وجعلوا يبثون لمن حولهم من الاعراب والقرى . « وترام سكارى ، وما هم بسكارى » [5] فجاءتهم الأجناد حتى ظنوا أنه لا يصلهم أحد إلى البلاد . ورتبوا أعيان البلاد ، أهل النجدة والبأس [6] فى الأماكن التى يخاف منها [7] وجعلوا الرماة [8] فى الأبراج العالية المشرفة على جميع البقاع . وغلقوا أبواب المدينة بالبنيان [9] . ربما غلقوا السكك [10] وأبواب الدور بالبنيان كذلك ، ويفتحون طاقات يدخلون منها ويخرجون [11] .

والحاصل أنه لم يبق لهم باب من أبواب الخوف إلا وغلقوه ، ولا أمر

---

(١) نخ : « حاملة منتظرا » .

(٢) فى جميع النسخ « الحيات » . والتصويب من قلنا .

(٣) نخ : « يذهبون » .   (٤) نخ : « بعض » .

(٥) هذا اقتباس من آى الذكر الحكيم ، سورة « الحج » الآية : (٢) .

(٦) نج . نر : « والناس » :

(٧) نخ : « منها هلاك النفس » .

(٨) فى جميع النخ . «الرمات» والتصويب من قلنا .

(٩) نخ : « بالبنيان الشديد الاقلاع » .

(١٠) السكك : الآزقة .

(١١) نخ : « ويخرجون لذلك » .

نافع لهم إلا واستمدوه ، والمواضع الرميمة جددوها ، والجديدة حصنوها وشيدوها ، مع أن هذه المدينة عظيمة فى نفسها ، محمية بأسوارها ورجالها . ولذلك لم يطمع أحد ممن كان قبله فيها [١] . ولما رتبوا كل صنف[٢] على حدته ، وحرضوه على سد عورته ، بلغ ذلك كله سيدنا — أيده الله — وصح عنده خبرهم ، وشاع فى الناس مخالفتهم[٣] ، ارتحل ونزل عليهم.[٤] والمسافة بينهم وبين « أم الضلوع » ثلاث ساعات ، فعندما وصل إلى منزل « الحلة »[٥] ، وذلك بقرب المدينة بنحو الميل. من الجهة الغربية ، ترك الناس يبنون أخبيتهم وتقدم ينظر المدينة[٦] ، وكان معه بعض العسكر . فصعد العسكر إلى الجبل ، وهذا الجبل متصل بالمدينة[٧] من الجهة الغربية والشرقية ، دون الجوف والقبلة . وحيث وصل العسكر إلى الموضع الذى يمكن منه الرمى[٨] ، جعلوا يرمون على المدينة بالرصاص ، ورماهم « الطبجى » صاحب المدفع بنحو ثلاثة أو أربعة مدافع . وحين تأمل سيدنا المدينة ، وميز سهلها ووعرها ، أمر من كان معه من العسكر أن يرجع إلى منزله وتحقق أن يدخلها[٩] . لأنه — أطال الله بقاه — كان له فطنة زائدة ، وتجربة صادقة[١٠] مع ما هو عليه ممارسة الحروب ، وفهمه لما ترمزه العيون[١١] ، وما تضمره الجيوب[١٢] . وأما

(١) نخ : « فيها لكثرة وبالها » .
(٢) كل صنف : من رجال أهل البلاد وأنائهم .
(٣) نخ : « مخالفهم وجمعهم » . (٤) نخ : « ونزل بالثبات » .
(٥) نخ : « المحلة بالحلية » . (٦) ينظر المدينة : يطلع عليها .
(٧) نخ : « لكونه متصل بالمدينة ، وقد اكتنفها اكتناف الوصلة » .
(٨) نخ : « الرمى المنازع » . (٩) نخ : « يدخلها ويزيل أثرها » .
(١٠) نخ : « صادقة غير جائدة » . (١١) لح . نر : « العين » .
(١٢) الجيوب : الصدور .

ثبوت الجنان [1] والشجاعة [2] فشيء تحار فيه العقول وتقصر عنه العبارة .

هذا وقد رجع إلى « محلته » ، وجمع كبراء قومه وأرباب دولته ، واختبرهم في كيفية قتالهم ، لينظر [3] سيدنا رأي القوم ، ويدفع بمشاورتهم عنه اللوم . فوجد الكل متفقين على رأيه ومسلمين أمرهم إليه . فقال لهم — عند ذلك [4] — : ان هذه المدينة قد أحيطت بها البساتين والأبراج . وبساتينها كلها مدورة [5] بالسور . فحيطانها متراكة وأسوارها متخالفة متكاثرة . ولو كان سور واحدة [6] لم يردنا ، أو اثنان [7] ، أو ثلاثة لم يضرنا ، ولكن أسوارها مشتبكة ، بعضها خلف بعض ، فلابد أن تجمعوا خدامكم ومواليكم ، الذين لا سلاح لهم ، يحملون بأيديهم « الفيسان » [8] ويذهبون مع العسكر [9] .

فكلما وصل العسكر لحائط من تلك الحيطان ، أو برج من تلك الأبراج [10] يركبه أصحاب الفيسان بالهدم حتى يجعلوا فيه طريقاً للعسكر . ثم يجاوزونه الى الحائط [الذي] [11] خلفه [12] . وهكذا حتى ينفذوا إلى المدينة ، أو يقاربوها [13]

---

(١) أي : ثبيت القلب . (٢) نخ : « والشجاعة المطارة » .
(٣) لينظر : ليختبر ، ويسبر . (٤) نخ : « عند ذلك قوله المشكور » .
(٥) مدورة : محاطة .
(٦) في جميع النسخ : « سوراً واحداً » ، والتصويب من قلبنا .
(٧) في جميع النسخ : « اثنين » ، والتصويب من قلبنا .
(٨) الفيسان : لغة أتليبية في أفؤس ، وفؤوس .
(٩) نخ : « مع العسكر بالحض » . (١٠) نخ : « الأبراج بالبنيان » .
(١١) الزيادة من نخ . تر . (١٢) نخ : « خلفه في المشهور » .
(١٣) نخ « أو يقاربوها البتاه » .

هكذا نفعل — إن شاء الله — ! فلما أصبح الله بخير الصباح ، أمر الناس أن يسقوا دوابهم ، ويقضوا مآربهم أول النهار ، وأبى عن القتال فى ذلك اليوم ، لأنه كان يوم جمعة[١]، فلما استقصت الناس ، وقضت حوائجها بعث لأهل الفيسان[٢] أن يأخذوا فيسانهم وأمر العسكر أن يذهبوا معهم[٣] ، وأوصاهم على الأشجار والنخيل ، فلا يقطعون شيئاً منها[٤] . ومن قطع شجرة أو نخلة ، فالله حسيبه . ومتولى الانتقام منه . وأمر عسكر الترك أن يقصدوا[٥] الجبل ، مكانهم بالأمس[٦] وباقى الطوائف أن يحدقوا بالبساتين من الجهة الترية والجهة البحرية ، ويكون معهم أصحاب الفيسان[٧] ، ليهدموا الحيطان التى فى طرقهم[٨] الحائلة بينهم وبين المدينة ، وأوصاهم — أيضاً — بأن لا يقصدوا المدينة فى هذا اليوم ، وإنما اشتغلوا بتوسيع طريقها ، وقطع جناحها حتى إننا إذا حملنا عليها بعد اليوم ، لم نجد ما يشغلنا عن قتالهم[٩] . فقوتهم فى هذه الحيطان فلا تقصروا عن نقضها . ثم عين لكل قبيلة موضعها[١٠] ولكل

---

(١) نخ : « جمعة الأبرار » .

(٢) نخ . تر : البستان » .

(٣) نخ . « معهم بطانهم

(٤) نخ تر : « فلا يقطع شيئا منه » .

(٥) نخ : « يقصوا » .

(٦) نخ : « بالأمس بالخدمة الكلية » .

(٧) نخ : « الفيسان بالتعيينة » .

(٨) نج : « طروقهم » .

(٩) نخ : قتالهم بمحضها » .

(١٠) نخ : « موضعها وحوزها » .

طائفة مركزها . فكانت « الزمالة »(١) أسفل الجبل، من الجهة القبلية . والترك عن يسارهم في قنة الجبل المتصل بالمدينة (٢) . وعن يسار الترك الدافع في أسفل الجبل من الجهة الغربية قبالة باب المدينة من المقابر، وعن يسار الدافع من الجهة الغربية — أيضاً — الدوائر (٣) ، وعن يسارهم من الجهة البحرية مخزن الشرق (٤)، هكذا عينهم سيدنا — أيده الله !

فما استتم كلامه حتى انهمل العسكر كالسيل وتراكم كقطع الليل ، واتبع كل واحد رايته وقصد كل مقاتل جهته ، التي عينت له (٥) ، وارتفع النهار ، وكثر الغبار ، وحمل كل واحد على ما يليه (٦) ، فلم يكن غير ساعة حتى بلغوا إليهم ، وخالطوهم في جناتهم وحيطانهم . فجعلوا كلما مروا ببستان إلا وهدوه هدا وخرت حيطانه إلى الأرض سجداً .

ولما رأت أهل المدينة أن العذاب قد أحيط بهم ، والبلاء نزل بساحتهم (٧)

(١) الزمالة : هم طائفة من « المخزن » الغربي الذي يضم مجمع « الدوائر » و « الزمالة » و « الغرابة » و « البرجية » .
وأما « المخزن » الشرقي فإنه يضم مجمع « المكاحلية » و « أولاد سيدي عربي» و « صبيح » ، و « أولاد العباس » ، وغيرهم من أهل النواحي الشرقية من « مينا الشلف » .

(٢) نخ : « بالمدينة المبلية » .

(٣) الدوائر هم إخوة البرجية ، وكانت رياسة المخزن متداولة بين هؤلاء. وأولئك أيام الأتراك، ومن«الدوائر» تفرعت عائلة «البحايثية» التي ينتسب إليها مصطفى ابن اسماعيل ، صديق فرنسا ، وعدو الأمير الحاج عبد القادر .

(٤) نخ : « مخزن الشرق بلا اشتباه » .

(٥) نخ : « له وناحيته » .

(٦) نخ : « ما يليه لنيل ميطانهم » .

(٧) نخ : « بساحتهم وبهم » .

علموا أنه سيصلهم ويستأصلهم [١]. فجالوا يميناً وشمالا ، وتزحزحوا عن مواضعهم ، ولحق أولهم بآخرهم . ثم انكشفوا وركب ظهورهم العسكر ، يقتلونهم كيف شاءوا وحيث شاءوا ، وأين شاءوا . وقبضوا منهم جماعة ، فأتوا بهم أسارى ، وحال بينهم وبين البغاة [٢] كثرة الحيطان [٣] . فكانوا مهما نقضوا حائطاً وطلبوهم خلفه ، إلا وجدوهم تأخروا من ذلك الموضع [٤] وتحصنوا من وراء حائط بعده [٥] ، حتى قيل إنهم هدموا أكثر من خمسين حائطاً .

وقد كلت أصحاب « الفيسان » من الهدم ، وقد قربوا من المدينة [٦] ولم يبق بينهم وبينها إلى سور واحد ، فرجت الناس وقد ظهر لهم النصر ، وبان لهم الفتح والظفر . ولو كان لهم إذن في الدخول في ذلك اليوم ، لدخلوها [٧] ، فلله در الدوائر في ذلك اليوم ، لقد أبلوا بلاء حسنا . وكذلك كل من كان في تلك الجهة نحوهم [٨] .

فـكل ثقل الحرب عليهم . وهذا كله بمنظر سيدنا ومسمعه [٩] ، ولذلك

---

(١) نخ : « ويستأصلهم ويذهب بمفاخرهم » .
(٢) في جميع النسخ : « البغات » والتصويب من قلنا .
(٣) نخ : « الحيطان وصيروهم حيارى » .
(٤) نخ : « الموضع لما خلفه » .
(٥) نخ : « بعده حائطاً » .
(٦) نخ : « من المدينة محل الموارد » .
(٧) نخ : « لدخلوها غبنا » .
(٨) نخ : « نحوهم وانتمى إليهم » .
(٩) نخ : « ومسمعه باشتهار » .

حين رآهم قربوا من المدينة — وقد مضى النهار — خاف على العسكر أن يدخل المدينة (١) وقد أقبل الليل فلم يتم مراده، وربما كانت للعدو بذلك فرصة، لأن له خبرة ببلده (٢)، فبعث بعض خدامه أن يأمروا العسكر بالرجوع (٣) فرجعوا. وانفصل القتال. وقد أصيب من « بنى الأغواط » وأحلافهم (٤) مايزيد على ستين رجلا ما بين قتيل وجريح، وأحد (٥) عشر أسيراً. وحيث رأت الأحزاب ما حل بهم (٦) علموا أنهم سيهلكون عن آخرهم، ولا قدرة لهم على مطاردتهم يوما آخر (٧)، [بل] لا يطيقون (٨) على ساعة واحدة (٩)، واشتد خوفهم، وزاد رعبهم، وتفرقوا جماعات، كل جماعة رجعت لأهلها، وعمدت نحو وطنهم (١٠)، وبعضهم مضى على وجهه حين الهزيمة، فلم يرجع ولم يلتفت إلى المدينة (١١) هذا لمن كان منهم بغير أهل ومال. وأما من كان منهم بأهله (١٢)

---

(١) نخ : « المدينة واشتد جهاده » .

(٢) نخ : « ببلده وتمل بجيشه نقصة » .

(٣) نخ : « بالرجوع لضيق الحال » .

(٤) خ : « وأحلافهم شهيرا » .

(٥) نخ : « وإحدى » .

(٦) نخ : « بهم بغنا كرهم » .

(٧) نخ : « مطاردة يوم آخر »

(٨) نخ : « ولا يطيقون » .

(٩) « واحدة فى يوم آخر »

(١٠) نخ « وطنها طالبة النجات » .

(١١) « المدينة بالعزيمة »

(١٢) نخ : « بأهله وخشى من وباله »

بقى حتى غشيه الليل ، وستره الظلام ، فحملوا أمتعتهم وأهلهم وهربوا (١) ولم يبق منهم الا الجريح الذى لا قدرة له على المشى (٢) .

وحكى أنه مات منهم فى اليوم الأول — حين رمام عسكر الترك (٣) ستة (٤) رجال وامرأة كانت تحرضهم فأصابتها رمية غلطا .

وحين رجع العسكر صار يحرض بعضهم بعضا . وأوجبوا دخول المدينة على أنفسهم ، وجعلوه فرضا . ثم أنه حين رجع ، قدم جميع عسكرة أمامه ، وتأخر فيمن كان حشمه وخدامه ، بعدما تحقق أنه سيظفر بها لا محالة (٥) . ثم تفكر فى عاقبة هذه البلاد ، وما تصير اليه ويحل بها من الفساد . وبها العلماء الذين حصر الله فيهم خشيته ، ووعدهم على ذلك (٦) جنته ، ووصفهم بأخيار (٧) البرية ، وفى رضاه بشهادتهم عليه أعظم (٨) مزية .

أراد أن يحذرهم ، وينذرهم ، ويعلمهم بما لديه . وسأل الله أن لا يحصل هلاك واحد منهم على يديه . كتب لهم كتابا : « بعد الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، إلى كافة علماء « بنى الأغواط » ، بعد السلام عليكم ، ورحمة الله : إن بلغكم كتابى هذا اخرجوا غدا عيالكم وأولادكم « من هذه القرية

---

(١) نخ : « وهربوا فى الظلام » .
(٢) نخ : « لا يستطيع على مشى الصحيح » .
(٣) نخ : « حين رمام الترك رميا شططا » .
(٤) فى جميع النسخ : « ست » . والتصويب من قلمنا
(٥) نخ : « لا محالة ، وتصير جيوشه فيها جوالة » .
(٦) اسم الاشارة يعود على « خشيته » .
(٧) فى جميع النسخ : « بخير » . والتصويب من قلمنا .
(٨) نخ : « أحسن » .

الظالم أهلها » وانحازوا خارج المدينة إلى جهة ، وعليكم أمان الله . وإن خفتم من بعض العسكر أن يوقع بكم ، وكلت بكم من يحرسكم . ولا تختلطوا بالقوم ، التى أراد الله هلاكها . فإن قبلتم النصيحة فاحذروا الفضيحة ، وإن أبيتم . فإثم أولادكم عليكم . والسلام » .

وختم الكتاب ودفعه إلى الرسول . فعندما وصلهم ذلك الرسول ، وجدهم فى حيرة وكربة ، وقد هربت عنهم الأعراب الذين كانوا محاصرين معهم ، وكذلك من خف حاله منهم . وبقوا متحيرين لا يعلمون (١) ما يصنعون ، ولا أين يتوجهون ، وأحدقوا بالرسول [يسألونه](٢) ، وهو راغب عنهم ، وجعلوا يقبلون يده(٣) حتى كثر الزحام على تقبيل يد . مع أنهم كانوا لا يعنون به ولا يلتفتون إليه .

فلما أخذوا منه الكتاب ، وفتحوه ، وقبلوه ، بعد ما على الجبين وضعوه ، أقروه مخصوصاً بالعلماء ، ومقصوداً بمن كان منهم بصيراً لا من به العمى (٤) . فبهتهم (٥) ذلك فضل الملك وحلمه (٦) . ودلهم على مرغبته فى العلم وأهله ، وحبه الخير وفعله . وانكبوا على الرسول والعلماء ، وتمسكوا بهم ، وقالوا :

---

(١) نخ : « لا يعلم » .
(٢) الزيادة من نج . تر .
(٣) نخ : « يده كأنه منهم » .
(٤) نج . تر : (عمى)
(٥) نج . تر : « فبهيم » .
(٦) نخ : « وحلمه وعدله » .

لا نجاة لنا إن لم ترحمونا [١] ، وتتوجه [٢] بجاهكم وكتبكم فينا ، فذنبنا أعظم من أن يغفر ، وبمينتنا ـ حقيق ـ أن لا تكفر . ولكن لابد أن يكون لنا جاهكم شفيعا ، و [أن] [٣] تذكروا سيدنا بقول الله : « ومن أحياها ، فكأنما أحيا الناس جميعا » [٤] .

وها هو ما قد جمعناه لكم . ولكم المنة علينا . وأن أبيتم أن تشفعوا لنا ، فلا نتركم تخرجون [٥] من بين أظهرنا ، حتى تهلكوا معنا .

فأخذ العلماء كتاب صحيح البخارى [٦] — رضى الله عنه — وقدموا على سيدنا [وسلموا عليه] [٧] فأعاد عليهم القول فى نصيحتهم وشفقته عليهم [٨] . فتكلم رجل منهم فصيح اللسان ثابت الجنان ، له معرفة بطريق السلوك ، واقتدار على مايخاطب به الملوك . وكان شاعرا فمدح سيدنا بأبيات ، وقبل الأرض بين يديه ، ودعا له بالنصر والتمكين والعز والفتح المبين ، وشكر فعله ، وقبل نصحه وقوله ، وقال له :

ياسيدى إن جعلتنا عتقاءك : فامنن على هؤلاء القوم [٩] ، واجعلهم أرقاءك ،

---

(١) نخ : « ترحمونا يقينيا » .
(٢) فى جميع النسخ : « وتتوجهوا » . والتصويب من قلمنا .
(٣) الزيادة من قلمنا لمناسبة سياق الكلام .
(٤) سورة « المائدة » الآية (٣٢) .
(٥) فى جميع النسخ : « نخرج » . والتصويب من قلمنا .
(٦) نج . نر : « سيدى البخارى » .
(٧) الزيادة من نج . نر .
(٨) نخ : « وسفقه عليهم ولم يرض بفطيحتهم » .
(٩) نخ : « القوم لله تعالى » .

وادخر أجر عفوم (١) عند الله تعالى ، ولا تخفر ذمة (٢) من جاءك شفيعاً ، ولا تفضحوه . « وما تفعلوا من خير فلن تكفروه » . (٣) وإن شئتم : يخرجون من البلاد بأنفسهم خاصة وهي لك بما فيها (٤) . فأعرض عن مقالهم ، وقال لهم : لا بد من قتالهم . ثم أمرهم بالقيام من عنده (٥) ، ولم يجبهم على ما طلبوه بكلمة من لفظه . فخرجوا من عنده مسرعين ، وطلبوا (٦) الخليفة مهرولين ، فدلهم عليه بعض خدامه ، وعينه لهم في مكانه (٧)، فاستأذنوا عليه في الدخول بمنزله (٨) ، وأرادوا أن يشفع لهم بوجهه ولفظه ، واعتذر لهم وأرجوه في ذلك حتى وعدهم ، بعد أن أوعدهم (٩) . ثم بينوا له ما يطلب به السلطان ، وأنهم يدفعون مائة خادم (١٠) ، وخمسة آلاف ريال بوجه ، ومائتين وخمسين بعيراً كلها مختارة من خيار كسب العرب (١١) وأربعة (١٢) أفراس من عتاق الخيل ،

---

(١) هكذا في جميع النسخ ، ولعله : « عفوك عنهم » ؟ .

(٢) نخ : « ولا تهفر دمة » . وخفر الذمة : نقض العهد .

(٣) سورة « آل عمران » ، الآية (١١٥) .

(٤) نخ : « وهي بما لك فيها قاصة » .

(٥) نخ : « من عنده بلحظه » .

(٦) الخليفة : السيد محمد بن عبد الله .

(٧) نخ : « في مكانه ومقامه » .

(٨) نخ : « بمنزله في حفظه » .

(٩) أو عدهم : تهددهم .

(١٠) نخ « مائة خادم من الوصفان » .

(١١) نخ : « العرب باحتكام » .

(١٢) أربعة : روعي فيه اللفظ . لأن الفرس مؤنثة .

ومائتى ثوب . هذا زائد على القدر الذى [نعطيه إياه][1] فى كل عام . فمضى إليه وأعلمه بهذا كله ، وسأله أن يقبل منهم ، ويعفو[2] عنهم ، فحيث رآه سيدنا حريصا على هذا الأمر استحى أن يرده خائبا[3] ، لعلمه أنه نصيح فى خدمته وخليفة فى أكثر وطنه . فقال له : الأمر إليك والخير طريقه عليك . فافعل معهم ما أردت[4] . فخرج من عنده والبشرى تترآى[5] فى وجهه . فبشر العلماء بالعفو عن قومهم ، وقبول سيدنا بما فى رأيهم[6] . فطفق يدعو[7] أولئك العلماء كلهم[8] لسيدنا ولمن كان لهم سبباً فى رضاه بما يرجو من الله قبوله . ثم قاموا من عنده ودخلوا على سيدنا[9] ، وطلبوا منه أن يكتب لهم بالأمان والرضى بالعطاء ، وأن يسمى لهم العدد ، الذى يعطونه[10] ، على الدوام ، ويستحق فيهم بمدور السنين والأيام . فامتنع من الكتابة ، وقال لهم ، أن أتيتم اليوم بما ذكرتم ، أو تدفعوا منه ما قدرتم ، والباقى تعطون فيه رهائن[11]

---

(١) فى جميع النسخ : « لعطوه » . والتصويب من قلنا .

(٢) نج ، نر : « ينف » .

(٣) نخ : « خائبا من منه » .

(٤) نخ : « ما أردت ، ولا مرد لما قصدت » .

(٥) نخ : « تترأ » .

(٦) نج ، نر : « لريهم » .

(٧) فى جميع النسخ : « فطفقوا يدعون » . والتصويب من قلنا .

(٨) نخ : « كلهم لما رأوا قبوله » .

(٩) نخ : « على سيدنا وهم بسطا » .

(١٠) فى جميع النسخ : « يعطوه » . والتصويب من قلنا .

(١١) نخ : « إلى هاتن » .

من أبناء كبرائكم ومشائخكم(١) ، وإلا لم يكن لكم عندى أمان ، وكلامى هو كتابى . فانصرفوا راشدين (٢) ، وقد تركت لكم مائتى ثوب ، حبا وكرامة لكم ، فزادهم فعله ذلك إكراما ، وشكروا صنيعه . ولم يبق عليه ملاما ، فرجعوا لأهلهم مبشرين ولما قدوم به جامعين . فلم يكن وقت العصر حتى أتوا بالخيل ، وعشرين خادما ، وشيئا من العروض (٣) وقالوا : نريد « الخلاصين » (٤) الذين كانوا عندنا أن يرجعوا إلينا . فبعثهم معهم فى تلك الساعة ، وبالغد شرعوا فى دفع الفضة ، والدراهم ، والعروض . ومضوا يومهم كله يدفعون (٥) . وحيث اطمأنت أنفسهم وتحققوا الأمان لديه ، جاءت كبراؤهم وأعيانهم ، ليدفع كل واحد ما عليه . ثم عين لهم ستة من كبرائهم الذين يأتون بأبنائهم ، يكونون رهنا تحت يديه ، فامتثلوا لأمره ، واستمعوا لقوله . فلم يكن ساعة ، إلا وقد أتوا بكل من عينه لهم ، وطلبوه أن يرتحل عنهم ، ويخلف من يأخذ منهم ، ويبقى رهائنهم تحت يده ، فوافقهم فيما رغبوه ، وأجابهم لما طلبوه ، لشؤم بلادهم ، وقبح أرضهم .

فماؤها حميم ، وغبارها عميم ، فلا توافق كل ذى طبع سليم . فمهما هب ريح ولو نسيم الصبا ، إلا وارتفع منها غبار عظيم ، وأظلمت منه الأرض ،

---

(١) نخ : « ومشائخكم فافهموا خطابى » .
(٢) نخ : « راشدين وارجعوا لأهلكم » .
(٣) : نخ : نخ : « من العروض بالاستطاعة » .
(٤) الخلاصين : كلمة إقليمية فى الجباة .
(٥) نخ : « يدفعون المقوم والنضوض » .

وامتلأ منه الجو طولا وعرضا [١] . ومع ذلك أنه لا نبات فيها [٢] تعيش به الدواب ولا شجر بساحتها يكون منه الاحتطاب . وهذا يوجب الانتقال منها ، والتباعد عنها . فوعدهم بالارتحال على أن يأتوا له بما بقى عليهم فى «عين ماضى» ، أو قبل أن يصلها . [٣] فاتفقوا على ذلك ، وخلف الخلاصة [٤] ، وأصبح يوم الاثنين مرتحلا عنهم ، وأخذ معه أبناء كبرائهم ، الذين وضعوهم رهنا ، وكذلك رجالهم الذين أسروا ؛ وقد كان أطلق منهم رجلين : أحدهما مداح ، والآخر مجروح ، فتفضل عليهما [٥] . وأما الباقون ، فطلب أهلهم فيهم الفدا ، كل واحد على قدر طاقته ، فقبل منهم ذلك ، وأمرهم بالعجلة فى دفع ما بقى عليهم [٦] ، وكذلك الذى يفتدون [٧] به رجالهم [٨] . ومن جملة ما أمرهم به أن بعض الخيل سرقت [٩] من عسكره ، وأن الذى سرقها [١٠] لمن الإعراب ، أحلا فيهم . وأن يردوها ، ويأتوا بها [١١] ، وإلا

---

(١) نخ : «ولعرض» . نج . نر : «وعرض» ، والتصويب من قلمنا .

(٢) نج . نر : «بقربها» .

(٣) نخ : «أن يصلها فليتحروا» .

(٤) الخلاصة : المختارين من الجيش لاستخلاص الجباية .

(٥) نخ : «فتفضل عليهما إلى أن صار هو الممدوح» .

(٦) نخ : «عليهم لرواج بضاعته» .

(٧) فى جميع النسخ : «يفتدوا» . والتصويب من قلمنا .

(٨) نخ : «رجالهم عن إحسانهم» .

(٩) فى جميع النسخ : «سرقوا» . والتصويب من قلمنا .

(١٠) فى جميع النسخ : «سرقهم» . والتصويب من قلمنا .

(١١) فى جميع النسخ : «أن يردوهم ، ويأتوا بهم» ، والتصويب من قلمنا .

لم تكن فدية فى إخوانهم . ثم مضى حتى نزل « الرشاق » ، وهو أسفل الواد الذى ينزل من « أم الضلوع »[١] وغاية سيره من « بنى الأغواط إلى « الرشاق » ثلاث ساعات ، قاصداً « عين ماضى » . ولما نزل أتوه أهل « تاجموت »[٢] ، واستشاروه[٣] : هل يأتون[٤] له بالعطف فى هذه الدار ، أو حتى ينزل عليهم . فقال لهم : لا نزل عليكم لأنى إن نزلت عليكم أخف[٥] أن يضركم الجيش[٦] ، فإن أردتم أن تدفعوا على أنفسكم هذه الكائنة فدلونا على منزل بعيد منكم[٧] . وأما العلف فلا تحملوا أنفسكم بشىء . فقالوا : لا بد من ذلك . فحيث رأى حرصهم وعزمهم على ما أرادوا ، أذن لهم فى أن يأتوا بثلاثين حملا فقط ، ولا يزيدون عليها شيئا[٨] ، وأعطاهم الإبل التى يحملونها عليها ، وأوصاهم أن يأتوا بذلك فى المنزل « الذى تعرفونه بعيداً عنكم » فدعوا له وشكروا فضله وفعله ، ونعتوا له منزلا يليق به قريبا من « عين ماضى » . وانصرفوا بالإبل[٩] ، وتركوا منهم واحدا يكون دليلا على المنزل الذى نعتوه وعينوه . وبالغد ارتحل ونزل على أربع

---

(١) نخ : « أم الصلوع — بصاد مهملة — بالتماضى » .

(٢) نخ : « أهل تاودموت » .

(٣) فى جميع النسخ : « واستأشروه » . والتصويب من قلنا .

(٤) فى جميع النسخ : « يأتوا » . والتصويب من قلنا .

(٥) فى جميع النسخ : « أخاف » . والتصويب من قلنا .

(٦) نخ : « الجيش فما إليهم » .

(٧) نخ : « منكم فى ذلك » .

(٨) نخ : « شيئا فيضركم » .

(٩) نخ : « بالإبل ليأتوا بما بينوه » .

سوائم [١] في موضع متوسط بين « عين ماضي» و « تاجموت وأمسناج » إلا أنه إلى « تاجموت » [٣] أقرب: يقال له « أمسناج» ، وهو موضع منبسط ، ذو مياه وعشب [٤] ، إلا أن [٥] ماءه بعضه أفضل من البعض . ولما نزلت « المحلة » أسرعت الناس إلى « تاجموت » [٦] ، منهم بائع ، ومنهم مشتر [٧]. وبعث معهم شواشه يمنعون الناس ظلم [٨] أهل المدينة . وقد حصل لأهل البلد ربح كثير ، وفائدة عظيمة ، حتى أنهم لو وجدوا لنزل عليهم كل سنة ، بل كل شهر [٩] ولا يضرهم مايدفعون له [١٠] بجبران ذلك بالربح ، الذى حصل لهم . فكانوا يشترون من « الخازنية » : الغنم ، ثمانية رؤوس بريال بوجه [١١] ، والبقر أربعة رؤوس بريال بوجه [١٢]. ومع ذلك [١٣] لم يدفعوا

---

(١) سوائم : قد أشرنا فيما مضى إلى هذا الجمع ومخالفته للقياس الصرفي .

(٢) نخ : « تاودموت وأمداج » .

(٣) نخ : « تاودموت »

(٤) نخ : « ذا مياه وعشب بالارض » .

(٥) نخ : « أنه » .

(٦) نخ : « تاودموت » .

(٧) نخ : « مشترى الشمينه » .

(٨) نخ : « من ظلمهم أهل المدينة » .

(٩) نخ : « كل شهر ، وتبق جيوشه عندهم مقيمة » .

(١٠) نخ : « له من المغرم » .

(١١،١٢) نخ : « بوجه » . و « ريال بوجه » صرف جزائري قديم يساوى فرنكا وستين سنتيما تقريبا .

(١٣) نخ : « ولم ذلك » .

لهم ديناراً ولا درهما (١) ، وإنما يدفعون لهم « البرانيس » (٢) والحياك ، وربما دفعوا لهم من التمر ، حتى أن الرجل منهم يأتى بالبرنوس (٣) الردىء ، والحياك ، فيأخذ عدة رؤوس من البقر والغنم (٤) . وحيث رأى الناس لم تزل فى قضاء حوائجها ، ولم تستتم من مآربها ، أصبح مقيما ليقضوا غرضهم ويكملوا مرادهم ، وركب هو يتصيد كما كانت عادته فى كل يوم منذ وصل (٥) أماكن الصيد(٦) ، وخصوصا الحبارى ، التى هى أعظم مصيده ، وأفضل مرغوبه ، وتفضيل هذا الصنف من الصيد بلغ عنان السماء ، وأكثر من حديثه العلماء والأدباء . فتراهم تارة يذكرون حسنه (٧) ، وتارة يصفون رمل الطير عليه وخوفه ، حتى أنهم قالوا : سلحه سلاحه ، وصيبه جناحه . وماذلك إلا لشدة اعتنائهم به(٨) أكثر من اعتنائهم بغيره . ومن شهد ذلك استحسنهم فيما قالوه ، وأعذرهم فيما استمالوه . وقد اجتمع عنده من الطيور الحسان ، المختلفة فى الأشكال والألوان

---

(١) نخ : « أولا درهما للجميع » .

(٢) فى جميع النسخ : « البرانيص » . والتصويب من قلنا . والبرونوس ، أو البرنس : ثوب ينسج من صوف أو وبر ، له « إسكيم » يغطى به الرأس شتاء ، وهو من ألبسة الجزائريين الذين يقطنون المناطق الباردة ، كما أنه شعار البرابرة (القبائل) :

(٣) نخ : « بالبرنوس » .

(٤) نخ : « والغنم فى ذلك » .

(٥) نخ « دخل » .

(٦) نخ : « الصيد لمطلوبه » .

(٧) نخ : « حسنه وجوفه » .

(٨) نخ : « به وغيره » .

ما لم يجتمع عند غيره من الملوك (١) فكانت ترد عليه من كل مكان ، فيقبلها ويجازى عليها الجزاء الكثير ، الذى أوجب جلبها (٢) . فلما كثرت عنده صار يختار الصوارم (٣) ويقدمها ويفضلها على غيرها (٤) . وحق لهذا الصنف التقديم والتفضيل (٥) ، فله غرة زائدة على غيره من أصناف الصقور ، لأن الصقر نوع. وتحته أصناف كثيرة (٦) ، إلا أن بعضها أفضل من بعض فى الصبر والإقدام وغير ذلك . ومن فاتته مشاهدتها ، ولم يحظ بنزهتها حين رسلها (٧) ، فعليه « بمقصورة الأسد » وقصيدة الفجيجى (٨) : فقد ذكر أن من أوصاف الطير وأصنافه والاصطياد به (٩) ما يبرد الغليل ويبرى العليل . وبعد الامتحان، يكرم المرء أو يهان ، وليس الخبر كالعيان . وقد أحسن الفجيجى ، حيث قال (١٠):

---

(١) نخ : « من الملوك ، ولا رآها أحد من الغنى والصعلوك » .
(٢) نخ : « جلبها بالعيان » .
(٣) الصوارم : الجوارح المفترسه كالباز .
(٤) نخ : « على غيرها بالصوارم » .
(٥) نخ : « والتفضيل على الطيور » .
(٦) نخ : « كثيرة لذلك » .
(٧) نخ : « رسلها وغاب عنه معاهدتها » .
(٨) هو ابراهيم بن عبد الجبار الفجيجى ، توفى ببلاد السودان فى أواخر القرن التاسع الهجرى، وقصيدته هذه تسمى «الفريد فى تقييد الشريد وترصيد الوليد» . وهى كلها فى الصيد توجد مع شرحها مخطوطا فى « برلين » . وتوجد — أيضا — نسخة خطية بمكتبة الجزائر، تحت رقم (١٥٠٩)
(٩) نخ : « والاصطياد به حال التفجيجى » .
(١٠) أى على وزن البحر الطويل ، المقبوض العروض والضرب معاً .

أخى هل ترى الأيام تجمع شملنا ونحن على جرد سراع نطالع (١)
لدى كل ربوة وأجراس طيرنا لها زجل من فوقنا وقعاقع (٢)

وكانت شيمة سيدنا كقوله :

فأصبح سلما للورى يطأ الثرى وتنظره فوق الثريا القنابع (٣)

ولو حضرنى شارح « السلوانية » (٤) ، لجلبت منه ما يناسب المقام ، ولكن لم يحضرنى ، لأنى قيدت هذه الأوراق فى أثناء السفر ، ولم تصحبنى كتب فى هذا المعنى أستعين بها ، ولا قوة حفظ نعول عليها ، وربما كان حذفه وعدم جلبه أليق بغرضنا ، لأنه يؤدى إلى الخروج على (٥) ما نحن بصدده . وهذه الإشارة — هناك — كافية (٦) .

ثم أصبح مرتحلا قاصداً « عين ماضى » ، فوصلها فى ثلاث ساعات . فلما رأوا أهلها خيله قد طلعت ، وبنوده قد أقبلت ، فزعت قلوبهم ، وطاشت عقولهم ، وغلقوا الديار ، وعلوا الأسوار وهم مصرخون ، وبالطاعة وطلب الشريعة معلنون . فنزلت « المحلة » بقرب السور ، بنحو المائة ذراع . وكان ماؤها الذى ينزل من صدر الجبل ويدخل المدينة (٧) شاقا « المحلة » داخلا

---

(١) نطالع : ننتظر الصيد ، ونترقب بروزه ، ونتطلع إليه .
(٢) القعاقع : نوع من الغربان ذات لونين : أبيض وأسود . طويلة الذنب . مفردها قعقع ويصح أن يراد بها أصوات الطيور أيضاً .
(٣) القنابع : جمع قنبع ، كقنفذ : القصير الخسيس .
(٤) السلوانية : روضة السلوان . وقد شرحها أبو القاسم محمد بن عبد الجبار ، المتوفى بفاس سنة ٩١٩ هـ .
(٥) نخ « عن » .
(٦) نح : « كافيات » .
(٧) نح : « المدينة للانتفاع »

من طرفها مما يلى الجبل ، نازلا بين أخبيتها (١) حتى نفذ إلى الطرف الآخر مما يلى المدينة ، وجاوزه إلى المدينة على عادته . ثم أن أهل المدينة مكثوا ساعة ، لا يرى شخصهم ولا يتبين خبرهم وتحير بعض الناس فى أمرهم ، حيث رآهم لم يخرجوا خوفاً أن يتغير السلطان عليهم ، فيوقع بهم . و بعضهم فارح (٢) لتأخرهم ، يريد أن يكون له نصيب فى غنيمتهم كاللواتى (٣) قبلهم . فبينما الناس مترددون (٤) فى أمرهم ، شاكون فى قدومهم ، وإذا بهم خرجوا بنسائهم وعلمائهم ، مقدمون النساء أمامهم ، وتلك كانت عادتهم . فلما دخلوا إلى « المحلة » (٥) أمر السلطان من أوقف النساء بمكان بعيد من فسطاطه مستنكبين عن بساطه . وأذن للعلماء فى التقدم ، فتقدموا وسلموا عليه ، وسألوه أن يرفق بهم ويشفق من حالهم وأن يعفيهم من القطيعة الأولى التى فرضها عليهم ، فإنهم لم يقدروا عليها ولا طاقة لهم بدفعها . فلما سمع كلامهم واستقصى خبرهم أدركته الحنانة والشفقة عليهم ، وجعل لهم « لزمة » (٦) أقل من الأولى ، وأعطى لنسائهم سوار (٧) فضة لكل أمرأة منهن (٨) . ورجعوا ، فدخلوا مدينتهم فارحين مستبشرين بما أنعم عليهم السلطان

---

(١) نخ : « بين أحبيتها ماشيا بصلصلته » .

(٢) فى جميع النسخ : « فارحا » ، والتصويب من قلبنا .

(٣) كاللواتى : كالغنائم اللواتى كانت له قبلهم .

(٤) فى جميع النسخ : « مترددين » . والتصويب من قلبنا .

(٥) نخ : « دخلوا المحلة » .

(٦) لزمة : ضريبة .

(٧) نخ : « سور » .

(٨) نخ : « منهم الأولى فالأولى » .

واقتضاء فضله من تخفيف اللزمة عنهم والأمان [١] . ويوم نزوله على « عين ماضى » قدم أولاد يعقوب ، « القبالة » [٢] بإبلهم وخيلهم التى اشترطها عليهم ، فقبلها منهم . وبالتد أصبحت أهل « عين ماضى » يدفعون قطيعتهم من الخيل والخدام والدراهم ، [٣] فدفعوا جزءاً وكملوا الباقى فى اليوم الذى بعده . وتعذر عليهم طرف منها . فتفضل عليهم بترك خادم وفرس [٤] . وحيث رأوا « المحلة » مقيمة بساحتهم ، قالوا : فهؤلاء لقد قصرنا فى ضيافتهم ، فأخرجوا مائة حمل من الشعير : علف للمحلة [٥] . ثم أقام بها يوم الجمعة منتظرا لقدوم « بنى الأغواط » باللزمة [٦] . فقدموا فى ذلك اليوم ، وقد أتوا ببعضها ، فدفعوه [٧] . وذلك خمسة آلاف ريال « بوجه » وأربعون خادماً . ورجعوا الإكمال الستين خادما الباقية من المائة ؛ والمائتين جملا وخمسين جملا . وأوعدوه بأنهم سيبعثون أربعة من الخيل التى سرقها [٨] « الخاليف » تصله فى منزله هذا [٩] ، وما بقى من اللزمة [١٠] ، فلم يقدروا على لحوقه فى الطريق بها ، وإنما يحملونها جملة إلى « معسكر » [١١] وإن قدرنا على لحوقه فتبارك الله .

---

(١) نخ : « اللزمة والأمان » .

(٢) القبالة : القبليون ، الساكنون ناحية الجنوب . وكلمة « القبالة » اقليمية النزعة

(٣) نخ : « والدراهم عدده » .

(٤) لج : « خادما وفرسا » . وفى نخ : « خادم وفرس منها » .

(٥) علف للمحلة : أى دواب المحلة ، من خيول وبغال ، وجمال وهلم جرا .

(٦) نخ : « باللازمة » . (٧) نخ : « فدفعوه قادما » .

(٨) فى جميع النسخ : « سرقهم » والتصحيح من قلنا .

(٩) نخ : « يصلونك فى منزلك هذا عاجلا .

(١٠) نخ : « اللازمة » .

(١١) أى : إلى مدينة « معسكر » . وفى نخ : « إلى المعسكر بالتحقيق » .

فهم كذلك [١] وإذا بخيل من « بنى ميزاب » [٢] قد لحقوا إلى « الحلة » وتركوا عسكرهم نازلا على « بنى الأغواط » [٣] طامعين أن ينقض سيدنا عهده مع « بنى الأغواط » ويخرجهم من بلادهم ويسلمها « لبنى ميزاب » [٤] فلم يلتفت لكلامهم ، ولم يسمع لمقالهم . فلما يئسوا منه وتحققوا أنه غير منقض عهد « بنى الأغواط » سألوا منه أن يجعل بينهم وبينهم [٥] صلحا ، ويأمرهم أن يطلقوا من كان محبوسا عندهم من « بنى ميزاب »[٦] فكتب لـ « بنى الأغواط » كتابا : « أن أطلقوا « بنى ميزاب » الذين حبستم ولا نسرح أحدا من أولادكم ، إلا إذا أتانى كتاب من قبل « بنى ميزاب » : وأنكم سرحتم أولادهم . [٧] وأما الصلح فلا أحملكم عليه [٨] فأنتم أعلم بما يصلح بكم والسلام » .

وفى هذه الأيام التى كان مقيما على « عين ماضى » ، شرع فى إعطاء الدراهم والدنانير لوجوه قومه وقواد عسكره ومقدمى قبائله ، فلم يبق منهم أحد إلا أعطاه ، ولا صاحب خدمة إلا واساه ، ولا ذو نجدة إلا حاباه . ولما فرغ من العطاء الذى لا يرجع إليه ، ولا منفعة له فيه سوى الثناء عليه ، أخذ يعطى للقبائل على وجه القرض ، المرجو ثوابه — إن شاء الله — يوم الجزاء والعرض . فأعطى لكل قبيلة بقدر حاجتها ، ولكل طائفة على حساب أهلها

(١) نخ : « فهم ذلك فى المخاطبة بالأفواه » .
(٢) نج : « مزاب » .
(٣) نخ : « بنى الاغواط بلا ارتياب » .
(٤) نج « مزاب » .
(٥) أى : بين بنى ميزاب ، وبنى الاغواط .
(٦) نج : « مزاب » وفى نخ : « بنى ميزاب فلحا » .
(٧) نخ : « وإنكم لاولادهم سرحتم » .
(٨) نخ : « عليه بالختام » .

فأوصلهم معروفه ، جملة وتفصيلا ، وعمهم فضله ، حقيرا وجليلا ، فأوجب تخليد ذكره بذلك ثناء جميلا .

الحاصل أنه مهما شهد أحد عطاءه فى ذلك اليوم إلا جزم بأن نفس غيره من الكرام لا تسمح بمثله ، بل لا تجود بعشر عشرة (١) . ولو نظر عاقل فى سيرة غيره من الملوك وتأملها ، وتتبع أحوالهم وتحققها ، مع اطلاعه على سعة ملكهم وقوة سلطانهم ، ونسب ذلك للذى مدح من فعلهم ، لوجده لم يف بقدر مملكتهم ، ولم يناسب عشر منزلتهم . وهذا أمر لا يخفى على ذى بصيرة ، ولو كان أعمى . وحينئذ ينقلب المدح على سببهم ، فيصير فى حقهم نقصا وذما . وإن بحث فيه يكون مزاحا وتهكما . وأظهر له الفرق بينهم وبين من ذكرنا بعض شمائله . وطوينا محاسنه الظاهرة من معالمه الدالة على فواضله وفضائله . فعلى هذا ، لو استبقوا معه فى ميدان المجد لما سبقوه ، بل لو جعلوا كلهم شق عدل ما وزنوه ولا لحقوه .

ليت شعرى هل وجد فى زمانهم ا فتجب خدمته وطاعته عليهم . وقد أحسن بعض أدباء العصر ، حيث مدحه بقصيدته المعزية التى دلت على كمال الممدوح وفصاحة وبلاغة [المادح] (٢) ، التى أولها (٣) :

بدأت بحمد الله فى معرض الثنا

وفى الافتخار ببهجة وثناء

---

(١) نخ : « بعشر عشرة بين الانام » .

(٢) الزيادة من نخ .

(٣) هذه القصيدة من البحر الطويل ، المقبوض العروض المحذوف الضرب .

وبعد فان قصدى فى النظم شائم (1)

إلى مدح من رأى به البصراء

ومن خصه الرحمن بالمجد والعلا

وحاز الفخار والمعالى سناء

دعا فأجبته المعالى مطيعة (2)

وقد كان منها منعة وإباء

ونافت (3) على الآمال آلاؤه التى

بها الروى طراً غنى واعتناء

وألقت له العلياء زمام [فضلها] (4)

فنها له ما يبتغى ويشاء

ومن سيبه (5) للناس فيض ومرتع

نعيم كثير دائم ورواء (6)

فإن رمت حصرا فى كماله فارتجع

فان البحور لم تزلها دلاء

---

(1) الشطر الاول من البيت مختل الوزن .
(2) الشطر الاول من البيت مختل الوزن .
(3) « نافت » : زادت .
(4) الزيادة من نخ ، والشطر الاول من البيت مختل الوزن .
(5) « سيبه » : عطاؤه الجزيل .
(6) «ورواء» : الاصل فى الرواء الماء الكثير الذى يروى الظمآن ، ويزيل عطشه .

ولو طار ألف عام الطير مسرعا(1)
فما قطعت بخفقهن سماء
ولكن ذا نزر يسير ذكرته
لتعرف منه جرعة صفياء (2)
وهاك اسمه أن كنت فيه منافسا
بأغلى ثمن ولا تقل ذا غلاء (3)
فخذ أربعين (4) ثم بعد ثمانيا (5)
وكالأولى (6) ثم ختمه نصف حاء (7)
وضفه إلى عثمان قبل وبعده
كما شئت أن تضف قبله كناء (8)

---

(١) الشطر الأول من البيت غير موزون .

(٢) الشطر الثانى من البيت مختل الوزن .

(٣) الشطر الثانى من البيت غير موزون .

(٤) « أربعين » : يشير إلى حرف الميم الأولى من كلمة « محمد » فإن الميم تعد بأربعين فى حساب الجمل .

(٥) «ثمانيا» : يشير إلى حرف الحاء من كلمة «محمد» فإنها تعد بثمانية فى حساب الجمل

(٦) «وكالأولى» : أى كالميم ، إلا أنها تعد بثمانين لأنها مضعفة فى كلمة «محمد»

(٧) «نصف حاء» : يريد به حرف الدال ، من كلمة «محمد» . لأن حرف الدال يعد بأربعة فى الحساب الجملى وهذا العدد بعينه يساوى نصف عدد « الحاء » ، التى تساوى ثمانية كما تقدم ، والشطر الثانى من البيت غير موزون .

(٨) « وضفه إلى عثمان ... الخ » أى انسبه إلى أبيه عثمان الكردى ، الذى كان قبله فى الوجود ، وكنيه أن شئت بأبى عثمان ، لأن عثمان اسم لابنه الذى كان=

وآكد سؤلى أن يدوم مخلدا
فللدين والدنيا بذاك بقاء

وهى قصيدة طويلة تزيد على الخمسين بيتا . ولو جمعت [1] ما قيل فيه من كلام الشعراء موزونا وملحونا لاحتجت [2] فى ذلك إلى عدة أسفار ، ومع ذلك فلنترك النث منه ونأتى بما هو مختار ، ولكن إن حضرنى شىء من ذلك فياياتى لأذكرن بعضه — إن شاء الله — من غير طول .

واعلم أنه لما قضت الناس جميع حوائجها [3] من كسوة وتمر . وتزودوا العلف وغيره أصبح يوم الأحد مرتحلا ، وأخذ طريق « رداد » . وهى بين جبلين ، تمر فى مسيل الماء ، إلا أن أسفل الوادى لا ماء به [4] . ثم بعد مسافة تصل إلى الماء وتسير بسيره [5] ، بحيث لاتخرج عنه يمينا ولاشمالا . وإنما صوب الطريق هو مجرى الماء حتى تصعد إلى قرب فم الواد . فسار ست ساعات حتى نزل فم الواد . وهذا الواد ينزل إلى « النشيا » ، إلا أن ماءه مالح أجاج [6] وأرضه ذات رمل وعجاج . فاستقى دوابه من لم يكن سقيهم من « رداد » . والبعض

= وجوده بعد وجود أبيه الباى محمد الكبير ، فإذن اسم عثمان اشترك فيه أبوه عثمان الكردى وابنه عثمان بن محمد الكبير . والشطر الثانى من البيت مختل الوزن غير جار على القياس النحوى .

(١) نج . نر : « جمع » .
(٢) نج . نر «لاحتاجت» .
(٣) نخ : « حوائجها الدالة على خيره » .
(٤) نخ : «لا ماء به وجاء» .
(٥) نخ : « بسيره اتصالا » .
(٦) أجاج : مر .

ذهب إلى ماء عذب بقرب هذا المنزل بنحو الميل ونصف ، واستقى منه لنفسه وسقى دوابه [١] .

وبالغد ارتحل ومر « بالمالح » . فكانت طريقة بطن الواد حتى صعد إلى « عجيبة » [٢] وأخذ طريق « القسم » ، ومر بعده بـ « المكدر »، وفيه عين ماء جارية على الأبد لا ينقطع ماؤها [٣] ، إلا أن ماءها قليل فى قمه ، فلم يكف الجيش الكثير ، فجاوزه حتى نزل « الخير » على ست ساعات . وبهذا المنزل ثلاث عيون [٤] ، ومنها « شلف » . وهى أصله كما ذكرنا سابقا ، وقد كان نزل هذه الدار حيث كان ذاهبا لـ« بنى الأغواط»، كما سبق مبينا [٥] وهذا « الخير » من الأماكن التى لها بال فى أرض الإسلام، من كونه ذا مياه كثيرة وأرض واسعة [٦] وجبال مرتفعة ومدن بهيجة متقاربة ، إلا أن بعضها عامر بأهله كـ« قصر العجالة »و« قصر الرحامنة » و« تادمامة» [٧] ، وأكثرها قد خرب وبقى أثر البناء دالا على بانيه [٨] ، وأعطى [وعظا] [٩] لكل من رآه ومناديه : كما حكى : أن سيدنا — عليه السلام — مر بقرية ،

---

(١) نخ : « دوابه بما يراد » .

(٢) نخ : « عجيبة المحرر ».

(٣) ماؤها بالثبات » .

(٤) نخ : « عيون بعضها لبعض لا حقا » .

(٥) نخ : « مبينا بالأعلام » .

(٦) نخ : « واسعة شهيرة » .

(٧) نخ : « وتادمامة بعبارة متجاربة » .

(٨) نخ . « ألا على بنائه » .

(٩) الزيادة من نخ: ز .

قد خربت حصونها، وجفت أشجارها وأنهارها (١) . فقال مخاطبا لذلك : يا خراب أين أهلك ؟ (٢) فنودي — عليه السلام — : بادوا وضمتهم الأرض، وعادت أعمالهم قلائد في أعناقهم، فبكى وانصرف — عليه السلام — .

وهنا أمر مشائخ أعراب تلك النواحي أن يرجع كل واحد لبيته وأن يكون بارا بأهله ورعيته . وذلك كشيخ « العمور » ، الذي كان قدمه عليهم وعلى أهل « جبل راشد » (٣) كله ، كما كانت عادة أسلافه من قبله . وكذلك مشائخ « أولاد يعقوب » « القبالة » وغيرهم . ولم يبق معه إلا « أولاد خليف » (٤) . والذين سرحهم لم يذهبوا حتى يسأل كل واحد منهم الأمان لنفسه وأهله ، فيؤمنه على أن لا يكون منه تقصير في خدمته ولا له خروج عن رعيته وطاعته ، ويوصيه على أن يدفع « لزمته » في وقتها ، ويكون قائما بما لها وما عليها ، ثم يصرفه (٥) . وباتت الناس تتعاطى كؤوس المسرة والبشرى ، وتتذاكر أن منازلها قربت من الظهراء ، بعد أن كلت أنفسهم وقربت من الصحراء ، وكثر فرحهم حتى عاد وقت العتمة يتقربون فيه البكرا . فكاد هذا الموضع أن يسمى « بدار الفرحتين » ، المؤذن بقرب البلد وملتقى المحلتين . وحيث برزت للناس أوطانها ، وذهب لغوبها (٦) وعناؤها ،

---

(١) نخ : « وأنهارها وزالت مدونها » .

(٢) نخ : « أين أهلك ، الخيل والأشهر » .

(٣) جبل راشد : الاسم القديم لـ « جبل عمور » .

(٤) نخ : « أولاد خليف مبذلون لجهدهم وغيرهم » .

(٥) نخ : « يصرفه بنعتها » .

(٦) لغوبها : تعبها الشديد .

أصبح مرتحلا بمحلته مقتصرا فى منازله (١) . فكانت طريقه منحدرة مع « وادى سبقاق » ، فسار أربع سوائع [٢] ونزل « عين وزاحه » [٣] . وبهذا المنزل مدينة ، إلا أنها خالية [٤] . وأصابنا الثلج فى الطريق ودام كذلك حتى نزلنا واسترسل حتى غطى السهل والجبل ، وعجز عن مكابدته الفرس الضعيف والجمل . ولما حطت الناس رحالها [٥] ، وبنت [٦] أخبيتها وخيامها ، قدمت « الأحرار الشراقية » بالإبل والخيل التى اشترطها عليهم ، فقبلها منهم وعفا عنهم [٧] . وسألوه فيما بقى لهم من الإبل أن يعطوا قيمتها دراهم ، ويبنو له تلك القيمة وإن وجدوا بعض الخدام [٨] دفعوا فى كل ثلاثة من الإبل عبداً أو خادماً . فأجابهم كما طلبوه ورضى عنهم بذلك الذى طلبوه .

ثم أمر بتلك الإبل ، فأحضرت بين يديه وبعث للقياد [٩] أن يكتب كل واحد ما ضاع لقومه من الإبل ويأتون له بالمكاتيب [١٠] ، فحسب كل واحد

---

(١) نخ : « فى منازله بالباع » .

(٢) القياس فى جمع ساعه ، ساعات وسياع وساع . ولم ندر لماذا خصص المؤلف لفظة « أربع » بهذا الجمع دون غيرها من ألفاظ العدد الاخرى ، فقد أتى فيها بالقياس .

(٣) نخ : « الوزاع » ، ثر : « وزجة » .

(٤) نخ : « خالية معلنا » .

(٥) نخ : « رحالها أمامها » .

(٦) نخ : « وبنيت » .

(٧) نخ : « وعفا عنهم العفوة الكريمة » .

(٨) نخ : « الخدام صحيحا لا عادما » .

(٩) نخ : « للقياد وكبراء القبائل »

(١٠) نخ : « بالمكاتب الخالية من الحلائل » .

ما ضاع لقومه وأزله بالمكاتيب ، فدفعها لكتابه [1] ، وصاروا يذكرون كل كل قبيلة ومالها وكل طائفة ومانابها [2] ، وكلا ذكروا قبيلة عين لها حظها حتى أتى عن آخرهم ، ولم يبق واحد منهم مات له جمل ، إلا أعطاه عوضه [3] أو أكثر ، ووفى له عدده . ثم سأل على كم ضاع « لمخزن الشرق » من الخيل [4] ، فأخبر بذلك ، فأعطاهم تلك الخيل التى قدمت بها « الأحرار ».

فزادهم فعله ذلك إكراماً وإجلالا وإعظاما . وقد كان وضعت يد التجارب فى كفه مرآة العواقب ، وتوجته بتصاريف الدهور ، وعرفته بمصاريف الأمور . فأربى على ملوك العصر ، بما أربت به الشمس على البدر ، والنور على النور . وقد قدمت فيما سبق أنى سأذكر شيئاً من مدحه ، وأنتقد طرفا مما قيل فيه — إن فتح الله على به — . والآن قد منّ الله علينا بالأخ فى الله : السيد الحاج أحمد بن السيد محمد بن علال القرّومى [5] ، دارا ومنشأ ، حيث ورد علينا قاصداً حضرة سيدنا ، راغباً فى نواله ، راجيا فى آلائه . ومدحه بقصيدتين،

أردت أن أذكرها هنا ، لمناسبة ما قصدت ، وتوفية لما به وعدت ، لا سيما وقد اشتملت أحداها على محاسن المسجد الذى حلم [6] به الزمان ، وسار فى الآفاق بحديثه الركبان . والأخرى على نيله « خريدة العجائب » [7] التى

---

(١) نخ : « وأزاله بالمكاتب فدفعهم لكتابه ازالة لومه » .

(٢) نخ : « ومانا بها من أولهم لآخرهم » :

(٣) نخ : « عوضه وصدده » .

(٤) نخ : « من الخيل بالاشتهار » .

(٥) نخ : « القروحى » .

(٦) فى جميع النسخ : « أحلم » . والتصويب من قلنا .

(٧) على نيله خريدة العجائب : الضمير فى « نيله » يعود على محمد الكبير ، =

لم يذكرها غير قاصد ولا طالب . وهى هذه : [١]

لقد أنجز الآمال وعدا من النصر
كما أبرز الاقبال ماكان فى القدر [٢]

وأهدى فؤاد الفتح عذراء بلدة
مثقلة الأرادف فى الحلل الخضر [٣]

تكلل بالشمس المنير جبينها
كما أبهى معصم تسور بالبدر [٤]

أحاط لها بالثغر من كل جانب
أسود الثرى والنيل يرمق عن شزر [٥]

=والمراد بالنيل — هنا — مطلوبه ومرغوبه، وهو فتحه مدينة الأغواط ، التى عبر عنها بـ « خريدة العجائب » .

(١) أى : القصيدة الرائية ، ذات العروض المقبوضة والضرب التام من البحر الطويل .

(٢) الآمال : جمع أمل وهو الرجاء . ومحله من الاعراب النصب ، لانه مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على محمد الكبير .
الاقبال : خلاف الادبار والمراد به — هنا — السعادة، والحظ والثروة . وهو مفعول به مقدم ، والفاعل مؤخر ، وهو « ما » الموصولة . القدر : — بسكون الدال — الطاقة ، والقوة .

(٣) فؤاد الفتح: قلب النصر . وهو محمد الكبير . عذراء بلدة : بلدة بكر لم يطمثها أحد قبله : وهى مدينة الاغواط .

(٤)تكلل : تتوج . معصم : موضع السوار من الزند . والشطر الثانى من البيت مختل الوزن .

(٥) الثغر : المكان الذى يخاف منه هجوم العدو.أسود الشرى : أسود=

محجبة ريما وبكرا غريرة
فناهيك من ريم وناهيك من بكر [1]

فكم رام قوم فك حسن ختامها
فباءوا بخسران ونذوا عن المهر [2]

لمن ذلت الأبطال قهرا لعزه
كما له كل الصعب ذل بلا عسر

محمد المستقل الشهب مجده
على أنه فى الأرض حاز سنى الفخر [3]

أمير له فى الناس عدل وسطوة
فعامله فى تلك يرفع بالجر [4]

= الغاب والأصل فى « الشرى » مأسدة بجانب الفرات يضرب بها المثل فى شدة غضب أسودها . الغيل : الأجمة ، ومقر الأسد .

يرمقن : ينظرن . الشزر : النظر بمؤخر العين من شدة الغضب ، أو الاعراض .

(١) الريم : الظبي الخالص البياض . غريرة : لم تحنكها التجارب . وفى ر : « عزيزة » . فنا هيك : فيكفيك . ومعنى البيت : أن مدينة الأغواط يسكنها أبكار حسان لا يشتغلن بشيء يكدر عليهن حياتهن . فهن ملازمات خدورهن تحت رعاية ذويهن . فيكفيك منهن كل رائع فى غاية الجمال ، الخلق ، والخلق .

(٢) رام : قصد فباءوا : رجعوا . ونذوا : امتنعوا . المهر : الصداق . والشطر الثانى فى نج . ر : « فى ارجعهم فى خيبة على المهر » .

(٣) سنى الفخر : رفعة الفضل وشهرته . الشطر الأول من البيت مختل الوزن .

(٤) ومعنى البيت : أن الممدوح صاحب عدل وقوة ، وعامل رفعته يكون =

لقد دوخ الأرض البسيطة طوله [١]
لصاحب مرمى [٢] الحق أو صاحب الجور

على رحبها ضاقت عـلى وسع جنده
فتسمع من بعد صدى نقر البتر [٣]

كأن قرى الأغواط جمـع مؤنث
فيعمل فيه الفتح جيشه بالكسر [٤]

لذاك ترى الأغواط إن ذكر اسمه [٥]
تنقد رأسا هل أبين من النحر [٦]

كأن بلاد الشرق والغرب كفه [٧]
فيأمر بالعمران فيها وبالقفر

إذا رام [٨] شخص أن يحدث نفسه
خلافا طوى عنه الأصابع بالعصر

=بالدفاع والجر ، وغيرهما من مظاهر قوته وسطوته وفى البيت « تورية » ، باستعمال الجر بمعناه الاصطلاحى اللغوية .

(١) نخ : « عدله » . والطول » : الفضل والعطاء .

(٢) « مرمى الحق » : هدفه ، الذى يتوخاه لرجل العادل .

(٣) « نقر البتر » : صلصلة السيوف القاطعة .

(٤) أى : كان قرى الاغواط مثل جمع المؤنث للأبكار ففتحها جيش محمد الكبير وكسرها . وفى البيت تورية .

(٥) « اسمه » : اسم محمد الكبير .

(٦) « تنقد » : تنتقد ، والضمير يعود على « الاغواط » .

(٧) « كفه » : طيعة له مثل كفه .

(٨) « رام » : أراد .

فإن [1] كان فى حرب تر الكون عابسا [2]

وإن كان فى سلم تر الكون فى إبشر

ترى مترف الأعداء حول خبائه

مصارعها [3] للوحش أكلا وللطير

إذ رام غزوا بشر الطير بعضه

ونادى منادى الوحش سيروا إلى الذخر [4]

فمن كلّ نج تقفو أثر نساله

على قدرها [5] حتى الخفافيش [6] والمزر [7]

جواد له فى الفضل أسنى مآثر

مكارمه جلت على العبد والحر

---

(١) تر : « ولو ».

(٢) نخ : « عامها » .

(٣) « مصارعها » : الضمير يعود على الأعداء .

(٤) « الذخر » : كل ما يخبأ لوقت الحاجة . والمراد به — هنا — الغنيمة.

(٥) « على قدرها » : على طاقتها وسطوتها . والضمير يعود على النمال ، أو على الخفافيش والمزر .

(٦) « الخفافيش » : مفرده خفاش . وهو نوع من الطير لا يبصر بالنهار ويسكن — غالبا — فى جوف سيقان الأشجار ، وفى الجحور أيضاً . ويشبه الجذران خلقه ، ويضرب به المثل فى عدم الثبات ويقال له « الوطواط » أيضا .

(٧) « المزر » : — بكسر الميم — الطائش من الحشرات والشطر الأول من البيت غير موزون .

هو البحر جـودا والمزبر [١]

وروض الربى علما وفى بسمة الزهر

توشح بالعلم الشريف حقيقة

لسنة خير الخلق مستند الظهر [٢]

فيصطنع المعروف فى كل أهله

ولا [٣] يفعل الأشياء إلا على سر

فلو شاء إنس جمع ظرف خصاله

لاذهله قسم الصحيح على الكسر [٤]

وحيره كسب المكارم والجدا [٥]

وأدهش فى التربيع [٦] منه وفى الجذر [٧]

---

(١) « المزبر » : الأسد .

(٢) نخ : « مسند للظهر » .

(٣) تر : « فلا » .

(٤) أى . فلو أراد أحد من البشر أن يحصى خصاله المحمودة لما استطاع أن يحصى جميعها ، لأن خفيها أعظم بكثير مما هو باد للعيان و«الصحيح» و«الكسر» نوعان من علم الحساب . وفى البيت تورية

(٥) « الجدا » : العطاء والسخاء .

(٦) « التربيع » : قسم من علم الحساب . وهو مربع العدد ، الحاصل من ضرب العدد بنفسه ، فالتسعة — مثلا — مربع ثلاثة .

(٧) «الجذر» : قسم من علم الحساب . وهو عدد مضروب فى نفسه . فالعشرة — مثلا — جذر المائة ، لأنها مضروبة فى عشرة . وفى البيت تورية .

فتستخرج الأسرار عند تقابل
فراسته قبل التخاطب بالجبر [١]
إلا يا أثيل الجد [٢] سيفك لم يزل
طويلا إلى أعناق أعدائكم يجرى
ودانت لك الآمال والسعد قابل
عليك بصقر الخلق والحر والسمر
وطاقت [٣] بك الامال من كل جانب [٤]
تسوق لك المطلوب تحت أعلى الأمر
ولا زلت عزّا [٥] يدوم ورفعة
ولا زلت ممدودا من الله باليسر
ودرت على الأبناء [٦] سحب سعادة
تخلد من أعمالكم طيب الذكر
فلما رأت عيناء [٧] ذاتها جودكم
ينادى بأعلى الصوت [٨] حى على البحر

(١) « بالجبر » : هكذا فى جميع النسخ . ولعله : بالجهر ، بدل من ذلك . وفى البيت تورية .
(٢) « أثيل الجد » : عريق الشرف . وفى نر : « أيا طويل الجد ... » .
(٣) نخ : « وطابت » .
(٤) نر : « جهة » . والشطر الثانى من البيت مختل الوزن .
(٥) نر : « عمر » .
(٦) « الابناء » : أولاد محمد الكبير .
(٧) « عيناء » من عظم سواد عينها ، واتسعت مقلتها . والشطر الأول من البيت مختل الوزن . زيادة عن غموض معناه .
(٨) نر : « جهرا » .

ولين جم [1] العالمين نداءه
على نوعها حتى الثعالب والنسر
فسيفك يترى الطير لحا من العدا
وسيبك [2] يرى [3] الناس من ألم الفقر
علت على بعد إليكم مطيتى
ولا من غوصانه [4] طالب الدر
وقلت لنفسى ابشرى لمقاصدى [5]
ونيل مرام واقتبال من الدهر
شربنا من الفرات لا ظمأ بعده
وأظفرنا بالكنز الجبر للكسر [6]
غدونا خماصا نحو باب مكارم
ورحنا بطانا ممتلين إلى الوكر
سلام عليكم يبهج الكون نوره
ويملأ بقاع الأرض من نفح العطر
يحييكم ما دام مطلع مدحكم
لقد أنجز الآمال [7] وعدا من النصر

---

(١) نر : « جميع » .
(٢) « سيبك » : عطاؤك وكرمك .
(٣) نر : « يبر » .
(٤) نر : « غوصته » .
(٥) نخ : « المقاصد » .
(٦) كلا شطرى البيت مختلا الوزن :
(٧) نخ : « الإقبال » .

وقال أيضا [1]

لما التقيت بوافد الحسن البهر
يزجى المطايا [2] مغربا [3] فى عسكر
خاطبته أين السير فانى
أبصرت ما أدهى وأدهش منظرى
فأجابنى بلسان طلق ناطقا
اسمع مقالى وع دقائق مخبر [4]
ألق العصا وفك رحل ركائبى
بالمسجد المنشى « بام العسكر » [5]

---

(١) هذه القصيدة من بحر الكامل ، صحيح العروض والضرب معا .

(٢) « يزجى المطايا » . يسوقها برفق . و« المطايا » جمع مطية ، كمطية ، وهى الناقة والبعير ، وكل دابة تركب .

(٣) « مغربا » : من أغرب فى جريه ، اذا أكثر منه ، أو أغرب فى الارض ، اذا قصد الغرب . أو أغرب فى الشىء ، إذ بالغ فيه .

(٤) الشطر الثانى من البيت مختل الوزن .

(٥) « أم العسكر » : مدينة معسكر . وهى مدينه البطولة ، والشرف الرفيع والنخوة العربية ، والعزة الاسلامية ، ومنها انبعث الغيرة الوطنية . وقد كانت فيما مضى قرية متوسطة يقطنها قبائل الاعراش وشرقا . و غريس » إلى زمان مصطفى أبى الشلاغم : فاتح مدينة وهران للمرة الاولى فقد حول اليها مركز الولاية من مازونة . وسكنها فاصبحت منذ ذلك العهد مركزا لادارة الدولة ومستقرها . كما أصبحت فيما بعد مرتعا لجيوش الامير الحاج عبدالقادر . ومكانا لائقا لتسيير حكومتة .

والمسجد المذكور فى البيت ، هو « مسجد عين البيضاء الذى شيده محمد =

الحكم التشييد في شرفاته

فتراه يحسن كالرياض المطر

خلعت عليه الشمس حسن ردائها

فلذاك يخطب أعين النظر [١]

لما رأت قمر السما [٢] خالما على

جبل ويعرف بالمكان المقصر

فكأنما الابن المشيد سناه [٣]

حجر من البهت [٤] الجذيب الصور

لم يستطع شخص زوال نواظر

من تلك لكن من بديع المبصر [٥]

= الكبير في مرة مدينة «معسكر»، وكتب على أحد جدرانه :

«أمر بتشييد هذه الجامع المبارك، خليفة السلطان السيد محمد باي بن عثمان . . . انتهى — بحمد الله — على يد المعلم أحمد بن محمد، بن حج احسين، بن صار مشق، التلمساني — رحمه الله في أول يوم ذي القعدة عام خمسة وسبعين ومائة وألف. كتب الحروف محمد بن صار مشق» .

(١) نخ : «فلذلك يخطب عينا المنظر» . والشطر الثاني من البيت مختل الوزن في جميع النسخ .

(٢) «خالما» : ألبسه حلة جلة من أنواره الفضية . والشطر الأول من البيت مختل الوزن .

(٣) «سناه» : معمول لـ «لمشيد» .

(٤) «البهت» : نوع من الرخام النفيس تتبلور فيه الأشياء وتنعكس عليه الصور .

(٥) المبصر — بفتح الصاد — اسم مفعول .

قامت زوايا خطوطه فى وضعها
فبحسنه شكل المربع مخبر[1]
فتراه أصفر فاقعا فى أحمر
قان وأبيض ناصع فى أخضر
روضا تخلخل فضة من مائة
متقنعا بقناع نور أزهر
نثر الغمام على بحور نوره
من طل وابله فتيت العنبر[2]
تحيا النفوس تنزها فى شكله
من حسن بهجته وذاك المنبر
فكأنها سوداء زنجية غدت
عليها حلى من النجوم الزهر[3]
وسط الساحة قبه مرموعة
من فوق أبهى قوائم من مرمر[4]
خود[5] تجلى على الغلائل سوقها
محصورة من غير آل الأصفر

(١) «مخبر» : — بكسر الباء — اسم فاعل . أى شكل مربع المسجد يخبرنا بحسن بنائه ورونقه . والشطر الأول من البيت غير موزون .
(٢) «فتيت العنبر» : أريجه ورائحته الطيبة .
(٣) الشطر الثانى من البيت مختل الوزن .
(٤) الشطر الثانى من البيت مختل الوزن .
(٥) «الخود» : — بفتح الخاء — المرأة الحسناء . وقد شبه هذا المسجد =

عجبا له من مسجد فى الأرض قد
حاكى السماء تطاولا فى الفخر
لو لم يكن [1] فلك لما كانت به
زينة الكواكب والثريا به الحرى
تحويه مدرسة غدت آثارها
تحييه بالعلم الشريف الأشعرى [2]
تمحى رسوم الجهل من ألواحه
تحمى شمائله عن الزور السرى
بناه الأمير [3] محمد فى التدرب قد
لاحت آثاره كالصباح السفر
هبت رياح النصر فوق بنوده
ويهب للأعدا بريح صرصر

= بامرأة فائقة الجمال . وشبه اسطواناته بسيقانها المنزهة عن الأغلال ، كما أن هذه الأسطوانات مطوقة ببعض الحلق المعدنية الثمينة من غير جنس الذهب ، لأن الذهب محرم على ما سوى النساء فى شريعة الإسلام ، وهو المعبر عنه بـ « آل الأصفر » . والشطر الأول من البيت غير موزون .

(١) نخ : « يك » . والشطر الثانى من هذا البيت مختل الوزن .

(٢) «الأشعرى» : نسبة إلى أبى الحسن على الأشعرى زعيم أهل السنة ومؤسس المذهب ، المشهور فى علم الكلام . وقد تتلمذ عليه خلق كثير ، من أشهرهم الإمام الكبير أبو الحسن الباهلى .

(٣) نخ : « أميرنا » . والبيت غير موزون بكلا شطريه فى جميع النسخ .

في جود هارون في عدالة ناصر
في رأى كسرى في عظامة [1] قيصر

لم ير في نقع الوقائع طرفه
بالطرف إلا بالسليل السمر

سقت [2] كاون البحر بل كالبدر بل
كالشمس بل كالبارق المتحدر

يشتد حرا للنجيع [3] ظماءوه
والشكل [قد] ينبو بحسن الجوهر

ألقى عليه الرعب من جلبابه
ما ينبيء الأعدا بالموت الأحمر

من نار أخرجه الجرد ضغطه
كالماء يعشق أكل لحم المنحر

لم يجمع الضدين [4] إلا سيفه
عجبا لنشأة عنصر من عنصر

إن كان وصل الملك قد ما بن على
بمحمد [5] وصاله فهو الحرى

---

(١) نخ ، « وفى ضخامة » .
(٢) « سقت » : ضمير المخاطب منه يعود على الباى محمد الكبير .
(٣) « النجيع » : الطعام النافع ،
(٤) نر : « الغمدين » .
(٥) نخ : « بمجد » .

فخر الزمان لمثله [1] من فضله
بين الأنام على زمان المنذر
وخزيمة [2] مع عمر والضحاك من
أولاد جفنة من أساود [3] حمير
إن كان فيهم بالزمان تقدم
كم تنسب الآثار للمتأخر
خذها بكف اليدين [4] فإنها
عذراء لم يطمثها [5] غير تفكر
وابق سيعدا خاتم العلياء قد
كملت خصالك فاعتذر ثم افخر

ومن هذه الدار [6] استأذنه « مخزن الشرق » فى الانصراف ، فأذن لهم فيه ، ورحلوا قرب الزوال [7] . وبقيت « المحلة » مقيمة على حالها . ثم « أولاد خليف » كذلك [8] ثم استأذنته «الأحرار الشراقة » أيضا ، فأذن لهم وانصرفوا

---

(١) تر : « تلميذ » .
(٢) نخ : « وبجذيمة » .
(٣) نخ : « من أبناء » .
(٤) تر : « لا بيدين » . والضمير فى « خذها » يعود على القصيدة .
(٥) لم يطمثها : لم يمسها . والشطر الثانى من البيت مختل الوزن .
(٦) أى : « وزاحة » .
(٧) نخ : « قرب الزوال لغير الانحراف » .
(٨) نخ : « كذلك فى ارتحالها » .

بعد ما دفعوا الخيل والإبل ، التي أتوا بها[1] . وبالغد ارتحل من «وزاحة» [2] والنصر يقفو أثره [3] وقدامه [4] . فسار أربع ساعات ونزل قرب «الحليات»، فقوى نزول الثلج ، واشتد البرد ، وتحرك الريح بعد سكونه وعربد . فاقام يومه بذلك المكان ، ينتظر تبسم الجو وإذا بريح الصبا هبت وزحزحت السحاب حتى ربىء في أرجاء السماء الصحو وحيث زال عبوس الغمام ، وظهرت الأودية والآكام أصبح مرتحلا . وكانت الطريق تمر على « الحليات » ، فوصلها وقت الضحى [5] وسار بحرا تارة وتارة رملا [6] ، إلى أن مضى من النهار ثمان ساعات ونصف ، فنزل بموضع يسمى « واد الدهان » [7] . وقد وجدنا فيه ماء كثيرا من أثر المطر [8] ، وغدرانه متسعة جدا ، بحيث تكفي الجيوش الكثيرة ثم ارتحل بالغد ونزل الواد الذي ينزل من « ريسة » [9] على ثلاث ساعات . ثم منه إلى « دير الكاف » ثمان ساعات .

ولما وصلت « المحلة » إلى هذه الدار ، وضربت أخبيتها [10] أمرت

---

(١) نخ : « بها عضا » .

(٢) نخ : « الوزاع » .

(٣) تر . « أمامه » .

(٤) نخ : « وقدامه بالتحليات » .

(٥) نخ : « الضحى بالزهات » .

(٦) نخ : « وسبا وتارة رمل » .

(٧) نخ : « واد الداهان النزلة الشهيرة » .

(٨) نج : « وغرانه » .

(٩) نخ : « ينزل للمدريسة » نج : « ينزل مدريسة » .

(١٠) نخ : « أخبيتها للحيانة » .

إليها [القبائل] (١) بالملف والضيافة . فـكل قبيلة أتت بما قدرت عليه . وقدمت « الأحرار الترابة » بقادتهم (٢) [إليه] (٣) . وأما الإبل التى كان جعلها عليهم (٤) فانهم قدموها إلى « غريس » ينتظرون بها قدوم سيدنا — أيده الله — . ثم أصبح مرتحلا ، فسار ثلاث ساعات ، ونزل « ضاية (٥) سيدى الطيب » ، فاتت الرعية — أيضا — بالضيافة والعلف ، وكما فعلوا بالأمس (٦) . وبالغد ارتحل وجاوز « واد العبد » ، ونزل بلاد « أولاد عوف » على خمس ساعات ، فاتوه — أيضا — بالضيافة والعلف (٧) ، وكذلك من بقى من الرعية « كاولاد خالد » ، و « أولاد إبراهيم » وغيرهم (٨) ، ثم جعلت الناس ترد عليه من « العسكر » : مثنى وفرادى ، وجماعات . واستمر فعلهم على ذلك إلى البيات (٩) . وقد تباشر بقدومه الدهر ، وقابل (١٠) أيامه بالأسعاد حتى صارت من حسنها كالمواسم والأعياد ، وعم خصبه الأهل والرعية والبلاد . فزال عنهم كل غم ، وارتفعت عنهم الأحزان والأنكاد . وكانوا يريدون (١١)

---

(١) الزيادة من نخ .

(٢) بقادتهم : - بالقاف المثلثة - بقوادهم والكلمة إقليمية .

(٣) الزيادة مع نخ .

(٤) نخ : « عليهم نصره الله » .

(٥) ضاية : هكذا فى جميع النسخ . ولعله « ضيعة » .

(٦) نخ . « بالأمس لنيل الأرب » .

(٧) نخ « والعلف لنيل المسرات » .

(٨) نخ : « وغيرهم بالسوية » .

(٩) البيات : الليل .

(١٠) نخ : «وقبلت» .

(١١) نج : « يردون » .

أن يفدوه بالأهل والمال . وذكر وروده — عندهم — أحلى من العذب الزلال ، واحق الناس بالتقرب [1] والمال ، وأولادهم بقول من قال [2] :

لعمرك قد مرت بلاد المغارب
سرور ضحيء بشر بالمشارب [3]
وأنسها من مرتع الخصب [4]
يحدث أن الروض ليس بعازب
قداستشمرت روح الأماني [5] رواحها [6]
وشامت [7] بروقا أمت بالسحائب
وعند طلوع البدر ليلا تسابقت
إليه تحيي راكبا بعد راكب

هذا ، وقد تضاعف الفرح فى ذلك اليوم ، وبات أكثر الناس يراقب الصبح ، فلم يساعده النوم . وحين بقى من الليل ساعتان ونصف ، جد فى السير [8] .

---

(١) نخ . نج « الترقب » .
(٢) هذه الأبيات من وزن البحر الطويل المقبوض العروض والضرب معا .
(٣) الشطر الثانى من البيت مختل الوزن .
(٤) نخ : « زائد » .
(٥) نخ : « الامان » .
(٦) نج : « روحها » .
(٧) « شامت بروقا » : نظرت إليها أين تمطر وأين تنزل .
(٨) نخ : « فى السير بالاقتدار » .

فلما وصل إلى « غريس » ، وجد خدامه : « الخازنية » تعرضوا له بإبل « الأحرار » . فنزل منها أربعين جملا ، قسمها على من مات له شيء بعد ما كان أعطى لكل من مات له عوض ما هلك له ؛ إلا أنهم [١] ماتت لهم بعد ذلك نحو الأربعين جملا ، فأعطاهم بدلها هنا [٢] ، والباقى طبعه كالعادة [٣] والسنة السابقة المتادة . وحيث كملت الإبل بالطبع [٤] ، ركب ودخل لـ « لمسكر » وقد تم له ما أراده من الأشياء ، ونال المحمدة التى استحق بها الاستعلاء على الثريا ، فألقت عصاها [٥] واستقربها النوى ، كما قر عينا — بالإياب — المسافر .

وكان دخوله يوم الأربعاء الثامن والعشرين من ربيع الثانى [٦] ؛ قبل وقت العصر ؛ فى أول الساعة الثامنة .

قد انتهى ما كنا أردنا جمعه ، وكمل الغرض [٧] الذى انتخبنا وضعه وتحرينا فيه جهدنا ، وجعلنا الاختصار وعدم التكلف فيه قصدنا .

فلله الحمد على ما من به من إكماله ، والشكر له على ما منحنا [٨] من إنعامه وإفضاله . ونسأله — سبحانه — أن يجعله موافقا لمن جمع لغرضه ، لأكون

---

(١) نج : « له » .
(٢) نخ : « هنا تحلية له » .
(٣) أى : ختم على ظهرها بالطابع ، حسبما جرت به العادة .
(٤) نخ : « بالطبع المشتهر » .
(٥) عصاها : الضمير يعود على « المحلة » .
(٦) نخ : « الثانى بالثامنة » .
(٧) نخ : « المراد » .
(٨) نج . نخ : « امتحنا »

مؤدياً لبعض حقه علينا وفرضه . فهو أكبر داع [١] إلى جمعه ، وأقوى سبب وحامل [٢] على وضعه.

قال ذلك [وكتبه] [٣] فقير ربه ، وأسير ذنبه : عبيد الله تعالى ، وأقل عبيده ، وأحوجهم إلى توفيقه وتسديده ، أحمد بن محمد بن [محمد] [٤] (بفتح الميم) بن علي بن أحمد بن هطال [٥] ، طالباً من الله تعالى أن يجبر صدع قلوبنا ، ويغفر جميع ذنوبنا ، وأن يجعل استعدادنا لمعادنا . [٦] إنه ولي ذلك والقادر عليه . [٧]

وصلى الله على سيدنا محمد [وصحبه] [٨] وآله عدد ما ذكره الذاكرون . وغفل عن ذكره الغافلون . « وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين »[٩]

« سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين [١٠] .

---

(١) نخ : « داعينا » . نج : « داعي » . والتصويب من قلمنا .

(٢) نخ : « سببا وحاملا » .

(٣) الزيادة من نج

(٤) الزيادة من نج .

(٥) نخ : « بن هطال . كان الله له يوم ترادف الأهوال .

(٦) نخ : « لمعادنا وأن يوفقنا لمرادنا » .

(٧) نخ - نج : « عليه بكماله »

(٨) الزيادة من نخ .

(٩) سورة « يونس » الآية :(١٠)

(١٠) سورة « الصافات » (الآيات : ١٨٠ — ١٨١ — ١٨٢)وفي نخ : « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام والحمد لله رب العالمين ، انتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه الجميل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

« كمل تقييد هذه الأوراق عشية يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر الله « ذي القعدة » سنة اثنتين بعد المائتين والألف ، على يد عبيد ربه ، وأحوجهم إليه ، المقر بذنبه ، وتقصيره : محمد بن البشير بن محمد « آقراي » . التلمساني داراً ، ومنشئاً . غفر الله له ، ولوالديه ، ولأشياخه ، ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، الأحياء — منهم — والأموات . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

« وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين » .

يوم (٢٢) ذي القعدة سنة (١٢٠٢ هـ) » (١)

هذا ما تيسر لنا أن نأتي به ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

المحقق : محمد بن عبد الكريم

الجزائر ٣/٤/١٩٦٧ م

(١) الزيادة من نح . ر .

فهرس أهم المراجع

(أ)

١ — أبو اسماعيل بن عودة (المزارى) : طلوع سعد السعود . .
(مخطوط تحت ملكنا)

٢ — أحمد بن على بن سحنون : الثغر الجمانى ، فى ابتسام الثغر الوهرانى . .
(مخطوط تحت ملكنا)

٣ — أحمد بن هطال : رحلة محمد الكبير إلى الجنوب . .
(مخطوط تحت ملكنا)

٤ — أحمد بن هطال : رحلة محمد الكبير إلى الجنوب . .
(مخطوطان بالمكتبة الوطنية تحت رقم : ١٦٤٣ — ١٦٤٤)

(ح)

٥ — حسن خوجة التركى : در الأعيان . . (مخطوط تحت ملكنا)

(ق)

٦ — قورقوس (GORGUOS) : ترجمة رحلة الباى محمد الكبير . .
(المجلة الافريقية لسنة ١٨٥٧م)

(م)

٧ — محمد أبو راس : عجائب الأسفار . . (مخطوط تحت ملكنا)

فهرس الموضوعات

هذا الكتاب

يتناول ثلاثة عناصر هامة ؛ من تاريخ الجزائر الإقليمي — على عهد الأتراك هناك — تلك العناصر التي قلما نجدها في سائر المؤلفات التي تناولت تاريخ الجزائر العام .

العنصر الاول : إبراز الحوادث الحقيقية ، التي عاشها المؤلف وشاهدها برأى العين ؛ بما فيها الاضطرابات السياسية ، والثورات الداخلية ، والعوائد الإقليمية التي يميز بها كل إقليم عما سواه .

العنصر الثاني : المنهج السياسي الذي كان ينتهجه حكام الأتراك تجاه المارقين عن الحكم ، والمتمردين على الأوضاع — آنذاك .

العنصر الثالث : الثقة التامة التي كان يتمتع بها علماء الجزائر من طرف حكام البلاد ، وسواد العباد .

نه كتاب جدير بالقراءة ! !

الثمن